

دكتور/ جابر فقيه
كلية الآلسنن
جامعة عين شمس

لُوِبَ الرَّسُول فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ

الجزء الأول
عَرْضُ النَّبُوَةِ



أَكْبَرُ السَّأَلَاتِ

فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ

عَمَدُ النَّبُوَّةِ

بقلم

الدّكّوك جابر قميحة
كلية الألسن - جامعة عين شمس

التوزيع
دار الفكر العربي
الشارع جمودي - القاهرة
ص ١٣٢ - ٧٦٠٥٤٣ - ٧٦٠١٦٧

الطبعة الأولى

١٤٠٦ - ١٩٨٦ م

حقوق الطبع محفوظة

اِهْسَانٌ

إلى كل ذي رسالة جليلة ...
يعيش لها ... لا بها ...
ويمضي في طريق الحق ...
باستعلاء الإيمان يمضي ...
أقوى من الترهيب ... يمضي ...
أعلى من الترغيب ... يمضي ...
لأنه ذو رسالة ...
يعيش لها ...
لا بها ...
إلى هذا الإنسان السماء ...
أهدى هذا الكتاب ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من قرابة عامين كان لقائى بالقارئ الكريم فى كتابى «**أدب الخلفاء الراشدين**» . وهأنذا التقى به فى كتاب جديد هو «**أدب الرسائل في صدر الإسلام**» . وبين الكتابين كما هو واضح وشيجه قوية ، وصلة واضحة في الموضوع والمضمون .

أما صلة النفس فقد بدأت مع مسيرتى في تأليف الكتاب كتاب «**أدب الخلفاء الراشدين**» وازدادت مع تقدمي في كتابة فصول الكتاب ، وتحولت من رأى إلى إيمان راسخ بفكرة . فقد كان **أدب الخلفاء الراشدين** تسلیمین :

القسم الأول ضم النصوص التي مثلت ألواناً أربعة هي :

- (أ) الخطب والوصايا .
- (ب) الكتب والعمود .
- (ج) الحكم والتوجيهات .
- (د) الحوار والجدل .

وقد عرضت هذه النصوص مفسرة تفسيراً لفويا ميسراً ينحصر في ذكر المناسبات والمعاني ، أما القسم الثاني من الكتاب فكان «**تقييماً** » لهذه النصوص ، واستخلاصاً للسمات الفكرية والفنية منها . وسميت هذا القسم تأدباً «وقفات ونظارات» .

وفي انتهاء البحث بدا لي عدة أمور أهمها :

١ - أن هذه الألوان الأربع التي نسبت للخلفاء الراشدين تمثل

أدباً حقيقياً متميزاً ، وخصوصاً فيما يتعلق بالقيم الإنسانية والخلقية والنفسية والتنظيمية .

٢ — أن كل لون من هذه الألوان يحتاج بحثاً مسماً تقادراً ، فالمجال يتسع لبحث عن رسائل الخلفاء الراشدين ، وثان عن خطبهم .. وثالث عن جلدهم ومحاوراتهم ورابع عن حكمهم وأمثالهم . هذا مع اعتراف بقوة الصلة بين هذه الألوان جميعاً فهي كلها تتبع من معين واحد ، وقد قسممنا الدليل عملياً على قوة الصلة ووحدة المنبع بجمعها وتقييمها في بحث واحد وهو « أدب الخلفاء الراشدين » .

ومع تقدمي في البحث السابق وقد قلت فيه إن كتابي هذا اكتفى بأدب الخلفاء الراشدين قوله وكتابه ، ولم أعرض لأدب غيرهم من زمانهم ، واختلطوا بهم من القادة والناس الا على سبيل الالاماع والاشارة في حالة الفرورة القصوى حتى يتكون للقاريء تصور كامل عن الطبيعة الأدبية والنفسية لهؤلاء الخلفاء الذين غيروا وجه الأرض والتاريخ دون أن اقطع خط القنابع بغير إراده أدب غيرهم بين ما أوردته من أدبهم^(١) .

أتقول مع تقدمي في هذا البحث حدثتني نفسي أن أتبعه ببحث عن « رسائل الخلفاء الراشدين » . واختصرت الفكرة في ذهني ولكن عهداً من العهود وهو عهد الخلفاء الأربعية لنصارى نجران أدار في النفس خاطراً بل حواراً ذاتياً .. ان هذه العهود الأربعية كانت تتممة .. أو ان شئت فقل امتداداً لعهد سابق .. أو بتعبير أدق كانت مؤسسة على عهد سابق «نحو النبي — صلى الله عليه وسلم — لنصارى نجران ، فجاءت هذه العهود » تأكيداً له من ناحية ، واستلهاماً لروحه ونطouchه في العدل والانصاف من ناحية أخرى وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نجد الموضع من جذوره أو من أساسه ويكون محور البحث « رسائل النبي والخلفاء الراشدين » ؟ .. ولكن لماذا لا أخرج بالبحث من دائرة « أدب الشخصيات » إلى « أدب العصر » فيما يتعلق بالرسائل ؟ . ورأيتني أصل إلى « القرار الحاسم » .. أو « لحظة التتويير » فانفتح قلبي للخاطر الجديد ، ورأيته

(١) انظر : جابر قميحة : أدب الخلفاء الراشدين ٢٧ .

يعانق هذا العنوان « أدب الرسائل في صدر الإسلام » . وقد رجحه
عندى عدة أمور هي :

١ — إنني لن احتاج إلى تخصيص قسم من الكتاب لنصوص هذه
الرسائل ، فأغلبها معروض في القسم الأول من كتابي « أدب الخلفاء
الراشدين » فالباحث إذن سيكون مقصوراً على الدراسة الفنية ، ولن تساق
عليه نصوص إلا على سبيل التمثيل والاستشهاد .

٢ — أن هذه الدراسة ستكون مغايره للدراسة السابقة ، حتى
لو نظرنا إلى ما كتبته عن الرسائل ، فما كتبته يمثل أدب « شخصيات »
لا « أدب عصر » . كما أنه يتسم باليجاز إذ أن الرسائل لم تظفر من الحديث
بأكثر مما نالت غيرها من الفنون النثرية كالخطب والوصايا والحكم . ومن
ثم تجيء هذه الدراسة لتتسع — في سماحة — « لتفصيل » في أدب الرسائل
ضاقت عنه طبيعة البحث السابق .

٣ — أن هذا المسلك أو هذا الاختيار يتفق ويساير الطبيعة
الوجودية أو الإيجادية لهذا الفن من الناحية الزمانية .. فهو يتبع من
الرسائل في صدر الإسلام من بدايته ، وهو عصر يبدأ بالنبوة الخاتمة
... ببعث النبي — عليه السلام — ويستغرق عهد الخلافة الراشدة الذي
ينتهي باستشهاد على بن أبي طالب كرم الله وجهه سنة ٤٠ هـ .

* * *

كان هذا هو تطور الخاطر أو « المنولوج » الداخلي إلى باعث نفسي
تحول إلى رغبة عارمة تتحقق في هذه الصفحات التي يطالعها القارئ .

وفي بطون كتب التاريخ والأدب ترد غير « الرسالة » أسماء أخرى تكاد
تنحصر في ثلاثة هي « الكتاب » و « العهد » و « الوصية » وإن كنت أرى في
الجمال — واعتماداً على الاستقراء التاريخي والعرف الاستعمالي — أن
« الرسالة » و « الكتاب » أوسع الاطلاقات مدلولاً وإن غالب استعمالهما في
« مكتوب » يحمله رسول إلى شخص بعيد عن المرسل .

أما « الوصية » المكتوبة فمضمونها الفكرى يغلب عليه طابع التوجيه
والارشاد في مجال خاص أو عام . ويأتي « العهد » غالباً ليحدد حقوقاً

وواجبات معينة بالكتابة ، ولكن هذا الاجمال لا يغنى عن التفصيل . ولنبدأ بالمفهوم اللغوى في بطون المعجم :

الرسالة :

جاء في مختار الصحاح^(٢) . راسله مراسلة فهو مراسل ورسيل . وأرسله في رسالة فهو مرسل (بفتح السين) ورسول والجمع رسيل (بتسكنين السين وضمها) ... والرسول أيضاً : الرسالة .

وجاء في لسان العرب :

والرسال التوجيه — وقد أرسل اليه والاسم الرسالة والرسالة . والرسول والرسيل ... والرسول بمعنى الرسالة .. يؤنث ويذكر والرسول : الرسالة والمرسل ... وسمى الرسول رسول لأنَّه ذو رسول اى ذُو رسالَة^(٣) .

الكتاب :

وأصل الكتاب : كل ما يكتب فيه ، وفي الحديث « من نظر إلى كتاب أخيه بغير أذنه فكأنما ينظر في النار » . وهو محمول على الكتاب الذي فيه سر وأمانة يكره صاحبه أن يطلع عليه . وقيل هو عام في كل كتاب .

والكتاب : الدواة : يكتب منها .

والكتاب : التوراة .

والكتاب : الصحيفة يكتب فيها .

والكتاب : يوضع موضع الغرض قال تعالى « كتب عليكم القصاص »^(٤) .

(٢) مختار الصحاح : مادة رسيل .

(٣) لسان العرب مادة رسيل ١٦٤٣/٣

(٤) تاج العروس : فضل الكاف بباب الباء .

والكتاب : الفرض والحكم والقدر . والكاتب عند العرب العالم ومنه قوله تعالى « ألم عندهم الغيب فهم يكتبون »^(٣) .

العهد :

العهد : الوصية والأمر قال تعالى « ألم أتعهد اليكم يا بني آدم » .. وفي حديث على - كرم الله وجهه - « عهد إلى النبي الأمي - صلى الله عليه وسلم : أى أوصى .

والعهد : التقدم إلى المرء في الشيء .

والعهد : الموثق واليمين يحلف بها الرجل ، والجمع عهود . تقول : « على عهد ومبثاق لأفعلن كذا . وقيل ولى العهد لأنه ولى الميثاق الذي يؤخذ على من بايع الخليفة ... ومنه قول الله سبحانه وتعالى « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم » وقال بعض المفسرين : العهد كل ما عوهـد الله عليه . وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهد .

والعهد الذي يكتب للولاة مشتق من عهد إليه عهداً إذا وصاه .

والعهد : الحفاظ ورعاية الحرية .. والعهد الأمان وكذلك الذمة . وفي التنزيل العزيز « لا ينال عهدي الظالمون » .. وإنما سمي اليهود والنصارى أهل العهد للذمة التي أعطوهـا ...

والعهد : اللائق والمعرفة .. والعهد : المنزل ... والعهد : الزمان
وألهـد : أول المطر^(٤) .

الصحيفة :

الصحيفة : قطعة من جلد أو قرطاس يكتب فيه^(٥) والجمع صحائف

(٥) مختار الصحاح مادة كتب .

(٦)تابع العروسي .

(٧) أساس البلاغة ٧/٢ .

وصحف (بضم الحاء) وصحف (بتسمكين الحاء) وفي التنزيل « ان هذا لفني الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى » يعني الكتب المنزلة عليهما .

قال الجوهرى : الصحيفة الكتاب . وفي الحديث : أنه كتب لعيينة ابن حصن كتابا فلما أخذه قال : يا محمد اترانى حاملا الى قومى كتابا كصحيفة المتمس^(٤) .

هذه هي خلاصة مراقبة ما جاء في المعاجم اللغوية في الرسالة والكتاب والمعهد والصحيفة : ونلاحظ على هذه التعريفات اللغوية ما يأتي :

١ — أنها جميعا تلتقي — وهذا ما أكدته انصرف الاستعمالى — في ركنتين أساسين هما : الطرفان أى الناقل والمنقول اليه أو المرسل والرسول اليه . ثم المضمنون المنقول أو المبعوث به . وقد يكون هناك « رسول ناقل ولكنه لا يمثل عنصرا أساسيا لأن صاحب الرسالة أو الكتاب قد يؤدي هذه المهمة بنفسه .

٢ — وغير هذا القاسم المشترك بينهما جميعا يختص الكتاب والصحيفة بعنصر أساسى وهو الكتابة ، فمن فضول القول أن نقرر أن الكتاب لابد أن يكون مكتوبا ، وكذلك الصحيفة .. ومن ثم لا يطلق أى منهما على ما يبلغ أو ينقل لطرف آخر شفاهة .

ولكن الرسالة تكون كتابة كما تكون شفاهة على حد قول زهير بن أبي سلمى في معلقته :

ألا أبلغ الاحلاف عنى رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم^(٥)

وكما نجد في قول كعب بن زهير بن أبي سلمى :

ألا ابلغوا عنى بجيرا رسالة على أى شيء ويب غيرك دلكا

(٤) لسان العرب مادة صحف ٤٠٤/٤

(٥) التبريزى : شرح القصائد العشر ص ١١٨

على خلق لم تلف ابنا ولا ابا
عليه ولم تدرك عليه اخا لكا
فانهلك المأمون منها وعلكا^(١)
مسفاك ابو بندر بكأس روية

وكذلك العهد يكون كتابة وشفاهة .

٣ — أحيانا تستعمل كلمة « الوصية » بديلا للرسالة والكتاب ،
وهي كذلك قد تكون مكتوبة وقد تكون شفوية ، ولكن مضمونها الفكرى
يغلب عليه طابع التوجيه والارشاد في مجال خاص أو عام .

٤ — ونجد العهد غالبا يدور على محور أساسى هو ذكر حقوق
معينة قبل الآخرين .. غالبا ما يكون كتابة لحفظ هذه الحقوق وقد رأينا
من معانيه اللغوية اليمين والميثاق ورعاية الحرية ... الخ .

٥ — كانت الرسالة والكتاب هما أشهر هذه الاطلاقات وأكثرها
استعمالا على مدار التاريخ .. أما أقلها بل أندرها استعمالا فكلمة
(الصحيفة) التي تستعمل فيما هو مكتوب ولو لم يكن ثمة اطراف تتبادل
الصحيفة ما بين مرسل ومرسل اليه ... ويلاحظ أنها لم تستعمل في القرآن
ال الكريم الا جمعا ، وبمعنى صحف الوجه وكتب الأنبياء^(١١) .

* * *

وعلى آية حال يمكن أن نكتفى في كل هذه الاطلاقات بأنه
« المكتوب الذي يتعلق في مضمونه بأكثر من طرف » .

(١٠) الأغاني ٦٣٤/١٨ : ديب غيرك : أى هلكت هلاك ايrik والبيت والآيات يذكر
فيها كعب على أخيه بجير اسلامه ، فاهرر النبي دمه ثم كتب اليه اخوه بان الاسلام يحب
ما تبله فباء النبي وأسلم على يديه وانشده قصيدة « بانت سعاد ٠٠٠٠ ، المشهورة .. وانظر
كذلك العدة ٢٤/١ .

(١١) انظر طه ١٣٣ ، النجم ٣٦ ، عبس ١٣ ، الأعلى ١٨ ، ١٩ ، البيه ٢ . هذا
وقد آقرنا ارجاء الحديث عن المفاهيم الفنية للرسالة وأنواعها وما دار في ذلك لحين معالجة
الموضوع ذاته في عهد النبي محمد عليه السلام وعهد الخليفة الراشدة .

وعلى عادة المخاطفة وعادة أجدادنا في التعريفات يخرج المكتسوب كل ما كان شفاهة ولو كان رسالة أو عهداً أو وصية .. والشق الثاني يخرج ما كتبه الإنسان لنفسه ولو كان كتاباً مؤلماً ، لأنـه — وإنـ كان كاتبه قد قصد به أن يقرؤه الآخرون بقصد الإفادـة أو الشهـرة أو تحصـيل المال — لا يـعد تـعلقاً بـالمـعنى المـقصـود والـذـى يـكون غالـباً تـعلـقاً بشـخص معـين أو جـمـاعة معـيـنـين كـكتـاب أبيـ بـكر لـالـمـرـتـدـين .. وـعـهـدـ عمر لـأـهـلـ إـيلـاء ..

على أن هذه الفروق بين الرسالة والكتاب والوعد والوصية ليس لها أيـة قيمة عملـية ، ولا يـترتبـ عليها اختـلافـ في النـتـائـجـ أو الأـهـدـافـ المـنشـودـةـ التي توـخـاـهاـ صـاحـبـهاـ منـ كـتابـتهاـ ..

الخطبة والرسالة :

وفي مجال التـفـرـيقـاتـ يـهـمـنـاـ أنـ نـشـيرـ فـيـ عـجـالـةـ إـلـىـ لـونـ نـثـرـىـ يـأتـىـ فـيـ الـرـتـبـةـ الثـانـيـةـ قـيـمةـ وـشـهـرـةـ بـعـدـ الشـعـرـ وـأـقـصـدـ بـهـ الـخـطـابـ .. «ـ وـتـلـتـقـىـ الـخـطـبـةـ مـعـ الـرـسـالـةـ فـيـ نـقـلـ مـضـمـونـ مـعـيـنـ إـلـىـ فـرـدـ أوـ جـمـاعـةـ » .. ولكنـ الـخـطـبـةـ تـخـتـلـفـ عنـ الـرـسـالـةـ فـيـ عـدـةـ أـمـورـ أـهـمـهـاـ :

١ — أنـ الـخـطـبـةـ غالـباًـ بـنـتـ الـبـديـهـةـ وـالـارـتجـالـ ، وهـىـ بـنـتـ سـاعـقـتهاـ أوـ لـحـظـقـتهاـ بلاـ اـعـدـادـ أوـ تـهـيـؤـ . أماـ الرـسـالـةـ فـيـسـبـقـهاـ التـائـيـ وـتـتـطـلـبـ اـعـمـالـ الـعـقـلـ ، وـقـدـ تـقـضـىـ الـمـراـجـعـةـ وـالـمـعاـوـدـةـ .

٢ — وهـىـ نـتـيـجـةـ لـلـسـمـةـ الـأـولـىـ : أنـ عـنـصـرـ الـفـكـرـ فـيـ الرـسـالـةـ يـكـونـ فـيـ الـأـفـلـبـ الـأـعـمـ — أحـضـرـ وـأـقـسـوـ فـيـ الرـسـالـةـ مـنـهـ فـيـ الـخـطـبـةـ .

٣ — الرـسـائـلـ أـدـلـ وـأـصـدـقـ فـيـ التـقـيـيمـ الـفـكـرـيـ وـالـفـنـيـ وـاقـدرـ عـلـىـ تـحـدـيدـ مـلـامـحـ صـاحـبـهاـ مـنـ الـخـطـبـ ، لأنـ الـخـطـبـ تـنـقـلـ — غالـباًـ — مشـافـهـةـ وـقـدـ لـاـ تـسـجـلـ الـخـطـبـةـ إـلـاـ بـعـدـ مـضـيـ عـشـرـاتـ مـنـ السـنـيـنـ . أماـ الرـسـائـلـ فـهـىـ أـبـقـىـ وـأـثـبـتـ عـلـىـ الزـمـنـ ، لأنـهاـ «ـ وـثـائقـ » مـسـجـلـةـ مـكـتـوـبـةـ . وـهـذـاـ هوـ السـرـ فـيـ كـثـرـةـ الـرـوـاـيـاتـ وـتـضـارـبـهاـ فـيـ نـقـلـ الـخـطـبـ وـقـلـ ذـلـكـ فـيـ الرـسـائـلـ . كماـ

٤

أن فقد جزء من الرسالة أمر بعيد الاحتمال وان كان فقد الرسالة كلها أمر محتمل . أما الخطبة فمعروضة للنسیان الكلی أو الجزئی . وهذا هو انسر في عثورنا على بعض الخطب ذات سطور معدودة ، وعلى نفس الخطب وقد امتد النفس فيها حتى لتبلغ عشرات من السطور . ولا تعليل لذلك الا اختلاف طرق الرواية واختلاف الرواة حفظا ودرایة^(۱۲) .

* * *

وهذه الدراسة « أدب الرسائل في صدر الاسلام » كما يظهر من عنوانها : بحث في « الرسالة » بكل أنواعها التي سنعرض لها وذلك في صدر الاسلام . وهو عصر كما هو معروف حده الزمني قرابة نصف قرن ويبدأ من بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم (۶۱۱ م) وينتهي سنة ٤ هـ بانتهاء آخر يوم من أيام الخلافة الراشدة . فهو اذن ينقسم إلى فترتين – لا أقول متميزتين تماما – ولكن أقول رئيستين ، فبموت النبي – صلى الله عليه وسلم – انقطع خبر السماء عن الأرض ب تمام الوحي . . . بذلك الاعلان الالهي « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا »^(۱۳) .

اما الفترة الثانية فتبعدا بخلافة أبي بكر وتنتهى باستشهاد على بن أبي طالب . . . وهى فترة استغرقت من عمر التاريخ قرابة سبع وعشرين سنة اتسعت خلالها الدولة الاسلامية ، وانتشر الاسلام على نطاق واسع في أنحاء العمورة ، وحدثت تطورات واضحة في السياسة والأدب وأسلوب الحياة ..

وهذا البحث يبحث « أدب الرسالة » في هاتين الفترتين اللتين يجمعهما عصر واحد هو عصر « صدر الاسلام » . . . وفي كلمات قلائل نعرض في هذا البحث بصفة أساسية لما يأتي :

(۱۲) انظر كتابنا أدب الخلفاء الراشدين ۴۵۲ .

(۱۳) المائدة ۳ .

- ١ — اتجاهات الرسائل وأطراها ومضامينها الذاتية والاجتماعية والسياسية والانسانية أو ما يمكن أن نسميه المحور الموضوعي ..
- ٢ — الملامح والسمات الفنية لهذه الرسائل في أطوارها المختلفة .. أو ما يمكن أن نسميه المحور الفنى .

هذا هما المحوران الأساسيان اللذان يدور حولهما هذا البحث ... وإذا كان هناك عناصر تفصيلية فهى ترتبط بهذين المحورين الأساسيين وتدور حولهما ولا تخرج عنهم .. كما سنرى في صلب البحث ..

هذا وقد قسمت البحث قسمين اعتمادا على فترتهما الزمانيتين : وكان القسم الأول عن : الرسائل في عهد النبوة ..

وكان القسم الثاني عن الرسائل في عهد الخلافة الراشدة . وكل قسم من القسمين ينقسم إلى فصول تدور كما ذكرت على المحورين الأساسيين اللذين ذكرتهما آنفا : المحور الموضوعي والمحور الفنى ..

وقد رأيت — لظروف لا يتسع المقام لشرحها أن تصدر هذه الدراسة في جزئين ، يختص الجزء الأول بعهد النبوة — وهو الذي يسعد بيدي القارئ الآن . ويختص الثاني بعهد الخلافة الراشدة ، وسيصدر في القريب العاجل إن شاء الله .

الفصل الأول

الكتابة في عهد النبي

عليها الصلاة والسلام

أمة أمية

بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - في أمة أمية ، وقد نص على ذلك انقرآن الكريم بقوله : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ^(١) .

ولكن كتاباً أفضلاً محدثين يذهبون الى أن العرب في الجاهلية لم يكونوا على هذه الأمية . ومن هؤلاء الدكتور حسين نصار الذي يرى أن الكتابة كانت منتشرة في البلاد العربية ، وأن التجارة كانت العامل الأول الذي أظهر الكتابة في بلاد العرب ، ولذلك نجد لها منتشرة حيث توجد التجارة ، فهي تسير في رحال الأدب والمناطق التجارية ، اذ لم يكن التجار

(١) الجمعة ٢ : جاء في تفسير القرطبي : قال ابن عباس : الأميون : العرب كلهم من كتب منهم ومن لم يكتب ، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب . وقيل الأميون الذين لا يكتبون ، وروي أن الأمى : الذي يقرأ ولا يكتب [مجلد ٦٥٧٠/٨] وجاء في الكشاف : يتلو عليهم آياته . يقرؤها عليهم مع كونه أمياً مثلهم لم تمهد منه قراءة ولم يعرف بتعلم [م ٤ - ص ١٠٢] وقيل أن العرب الأميين كانوا لا يقرأون ولا يكتبون - في الأعم الأغلب . وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - انه قال : هكذا وهكذا وأشار بأصابعه ، وقال « انا نحن أمة أمية ، لا نحسب ، ولا نكتب » . وقيل : إنما سمع من لا يكتب أمياً لأنه نسب إلى حال ولادته من الأم ، لأن الكتابة إنما تكون بالاستفاده والتعلم . [سيد قطب : في ظلال القرآن مجلد ٦ / ٣٥٦٤]

العرب مستطاعين الاستغناء عنها في معاملاتهم الداخلية أو الخارجية^(٢) . وينقل عن « أوليري » ان مكة عرفت نوعا من الحكومة الجمهورية في أيامها الجاهلية ، وكان لهذه الجمهورية دار تداول فيها الرأى في مشاكلها التجارية والسياسية والاجتماعية ، وتعقد فيها المعاهدات السياسية لدفع العداون أو تأمين السبل أو تبادل المساعدات العسكرية ... وانا لذكر حلف الفضول وحلف قريش ضد بني هاشم بعد ظهور النبي ، وكتابتهم الصحفية المشهورة وتعليقها في جوف الكعبة وكتبوا المعلقات على القباطى بماء الذهب وعلقوها على جدران الكعبة^(٣) .

وقد كثر ذكر الكتابة في الشعر الجاهلى .. كما جاء في القرآن أيضا ، فالقرآن يحيث على تدوين الديون والمعاملات التجارية وغيرها مما بدل على أن الكتابة كانت شائعة عندهم . يقول تعالى « يايهما الذين آمنوا اذا تدายนتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا ياب كاتب ان يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملاذ الذى عليه الحق^(٤) » وكذلك يذكر القرآن أدوات الكتابة مثل القلم واللوح والقرطاس والصحف^(٥) .. ويرى الدكتور نصار انه مما يدل كذلك على شيوع الكتابة في المجتمع الجاهلى دوران لفظ الكتابة في القرآن في الموضع المختلفة ، والمعنى المتنوعة التي تتفرع عن لفظ الكتابة بمعنى التدوين والتبسيط مثل قوله تعالى « كتب عليكم القتال وهو كره لكم^(٦) » .. وغير ذلك من الآيات التي توحى بانتشار الكتابة منذ زمن غير قليل^(٧) .

وما سبق يستلزم وقفة ومناقشة :

١ — فالقرآن كما قطع بأمية النبي — صلى الله عليه وسلم — قطع

(٢) انظر : د. حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي . ٢٠

(٣) السابق ٢١

(٤) البقرة ٢٨٢

(٥) راجع آيات : القلم ١ ، والطور ١ ، ٢ ، ٣ .

(٦) البقرة ٢١٦

(٧) مضار السابق ٢٤ - ٢٥ .

كذلك بأمية العرب في الجاهلية .. وهذا القطع ينصرف إلى الغالبية العظمى من عرب الجزيرة العربية .

٢ - وتصویر المجتمع الجاهلي بهذه الصورة الزاهية في مجال السياسة ونظام الحكم والكتابة يجعل منه مجتمعا لا يقل قوة وتقدما عن الدولتين الملaciacones له .. دولة فارس ودولة الروم . وهذا مخالف للواقع التاريخي فقد كانت دولة الفرس تتحكم في المناذرة ، وكانت دولة الروم تتحكم في عرب الفساسنة .

٣ - وكتابة بعض الصحف والمعهود لا يدل على شيوخ الكتابة .. فهي مذكورة في التاريخ على سبيل الحصر . وأضعاف أضعافها كان يتم شفاهة ، واهتمام التاريخ واحتفاله بها يدل على قتها — ومن المعهود التي تمت شفاهة تعاقد بنى عبد الدار وبنى عدى ابن كعب بن لؤي وتأكيدهم حلفهم بوضع أيديهم في الدم حتى سموا « لعقة الدم »^(٣) ، بل إن أشهر أخلفهم وهو حلف الفضول كان شفاهة ولم يكتب . فقد كان استجابة تلقائية بداع من الاريفية والشهامة إلى الاتفاق على « أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم من دخلها من سائر الناس إلا قاما معه وكانتوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته .. »^(٤) ولعل هذا هو السر في اختلاف المؤرخين في القبائل والبطون التي دخلت فيه^(٥) .

٤ - والأمر بكتابة الديون يدل على حرص القرآن على حفظ الحقوق لا على شيوخ الكتابة ، بل قد يحوى أمرا ضمنيا بتعلمهها وخصوصا إذا وضعنا بجانب هذه الآية الثانية من سورة الجمعة التي تنص على أمية العرب .

على أن الأمر موجه إلى الذين آمنوا في كل زمان ومكان ... والقرآن قد يأمر أو ينهى عن أمور وسائل لا يكون لها وجود حقيقي في المجتمع

(٨) سيرة ابن هشام ٢٠٤/١

(٩) السابق ١٤٠/١ وأنظر من ١٣١ إلى ص ١٤١ .

(١٠) انظر في تفصيل ذلك الروايات المتعددة في الأغاني ٦٥٩٧/١٩ - ٦٦١٦ .

حال نزوله مما يدل على عالميته وانه جاء لكل زمان ومكان ومثال ذلك قوله تعالى «بأيدها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايننك على الا يشركن باله شيئا ، ولا يسرقن ولا يزنبن ولا يقتلن اولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترنه بين ايديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم »^(١) .

وحيثما فتح النبي — عليه السلام — مكة ، وأخذ بيضة الرجال ، ثم جلس لأخذ بيضة النساء ، وأخذ يقول ... لا تشركن .. ولا تسرقن .. ولا تزنبن .. هبت هند بنت عتبة قائله في استفهام استنكاري أو تزفي الحرية ؟ وفي رواية أخرى : ما زفت منهن امرأه قط^(٢) .

فهل خفيت هذه الحقيقة عن النبي — عليه السلام — ؟ هل غاب عن خاطره أن الحرائر لا يزنبن ؟ اللهم لا . ولكنها عالية التشريع ، فتحريم ما لم يكن سائدا في جزيرة العرب ، وما لم يكن قاعدة لها مكانها وثبتتها يدل في ذاته على « عالمية الاسلام مكانيا من ناحية ، وعلى خلود الاسلام زمانيا من ناحية أخرى ، فالزنى في وقتنا الحاضر — وبخاصة في الغرب — أصبح مظهرا من مظاهر المدنية . او على الأقل لم يعد من الأفعال التي تشنين مقتوفها وتصمه بالائم والعار والخروج على القانون والأداب^(٣) .

٥ — والتعبير بالكتابة في نحو قوله تعالى « كتب عليكم القتال .. كتب عليكم الصيام ... الخ من المجاز الذي يعرفه العرب ولا علاقة له بانتشار الكتابة او عدم انتشارها فمن المجاز : كتب عليه كذا : قضى عليه ... ، وهذا كتاب الله : قدره .

قال النابغه الجعدي :

يا بنت عمى كتاب الله أخرى
عنكم وهل أمنعن الله ما فعل^(٤)

(١) المتخنة ١٢ .

(٢) الزمخشري/الكتشاف ٩٥/٤ .

(٣) جابر قميحة : الدخل الى القيم الاسلامية ٢٠ .

(٤) الزمخشري : أساسه البلاغة ٢٩٤/٢ .

٦ - وكتابه المعلقات بماء الذهب على القباطى وتعليقها على الكعبة^(١٥) . . . رأى مضعوف لا يهضم العقل ، فقد نقضه الدكتور احمد الحوف بأدلة تاريخية وعقلية قوية^(١٦) ، وهو يتسائل بعد ذلك : كيف تصدق أن العرب كتبوا هذه القصائد بماء الذهب على القباطى وهم أمة أمية ؟ وهل من المعقول أن ينبع فيهم من يجيد الكتابة حتى يكتب بماء الذهب على القباطى ؟ . . . وقد هدمت الكعبة وجدد بناؤها ، واشترك النبي - صلى الله عليه وسلم - في وضع الحجر الأسود في مكانه ، ثم جاء الإسلام وفتح النبي مكة ودخل البيت الحرام وحطم الأصنام ، ولم يرد للمعلقات ذكر في هذه المرة أو تلك .

وقد ذكرت أنواعكسوة البيت الحرام في الجاهلية . . . ولم تذكر القباطى الا فيكسوة البيت في صدر الإسلام في عهد عمر وعثمان - رضي الله عنهم .

ثم من هؤلاء الذين كانوا يقضون بأن القصيدة جديرة بأن تتعلق ؟ وهل أفتر الشعر القديم كله فلم تكن فيه قصائد جياد تستحق التعليق غير هذه السبع ؟ . . .^(١٧)

فالحكم اذن بشيوع الكتابة بكل ألوانها او اغلب أنواعها من سياسية وتجارية وفنية في المجتمع الجاهلي قول يعوزه الدليل ، وهو أشد ضعفا من الحكم بالأمية المطلقة على هذا المجتمع . أما الحكم السيد حقا فهو ما أوجزه المرحوم أحمد زكي صفت من أن جمهورة العرب في ذلك العصر كانت متبدية^(١٨) فلم تكن الكتابة فيهم فاشية ، ولذا كانوا يعتمدون في تراسلهم على المشافهة ، فيبيغثون برسالاتهم شفهية مع أمناء ينتظرونهم^(١٩)

(١٥) من قال بذلك ابن الكلبي وابن عبد ربہ وابن رشيق القمي وابن خلدون .

(١٦) انظر كتابة الحياة العربية من الشعر الجاهلي ١٤٦ - ١٥١ .

(١٧) السابق ١٤٨ .

(١٨) تعيش في البداية .

(١٩) يختارونهم .

لابلاغها ، وكانوا يحتفظون بآثارهم الأدبية فيسقطونها في الصدور ، ويتناقلونها على الألسن ، ولم يزاولوا من العلوم والفنون ما يقضى عليهم أن يدونوه ويقيدوه في سجل يدرأ عنه عادية الضياع والامحاء . أما أهل الحاضرة منهم فقد أتوا بالحضارة بعض الالام ، وكانوا يمارسون الكتابة ، ويتبادلون الرسائل المكتوبة ، ولكنهم لتقادم العهد لم يؤثر عنهم الا رسائل قلائل معدودة^(٢) .

فالامر اذن كما قال الجاحظ « كل شيء للعرب فانما هو بديهية وارتجال وكأنه الهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجلالة فكرة ولا استعانته ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصم ، أو حين يمتحن على رأس بئر ، أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقشة أو عند صراع أو في حرب ، فما هو الا أن يصرف همه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي ائله يقصد ، فتاتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ اثنين^(١) .

من هنا كان للشعر المقام الأول من الكلام ، وحينما أخذ العرب ببيان القرآن وبلاغته لم يجدوا من فنون القول ما « يرمون » به القرآن الا انه شعر وما « يرمون » به النبي — عليه السلام — الا انه شاعر^(٢) وهذا « الاتهام » يعد شهادة بأن الشعر هو أرقى كلام ابشر .

ثم تأتى الخطابة في المرتبة الثانية من فنون الكلام فهى كالشعر تعتمد عند العرب على « بديهية وارتجال » ولم يكن للخطيب في المجتمع الجاهلى ما كان للشاعر ، اذ كانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر انت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعنين بالزاهر ، كما يصنعون في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن

(٢٠) جمرة رسائل العرب ٩ وانظر احمد أمين : فجر الاسلام ١٤٠ وما بعدها .

(٢١) البيان والتبيين ١٣/٣ .

(٢٢) انظر آيات : الصافات ٣٦ ، والأنبياء ٥ والطور ٣ والحة ٤١ .

أحسابهم ، وتخليد آثارهم ، واسادة بذكرهم . وكانوا لا يهئون الا بغلام يولد ، او شاعر ينبع فيهم او فرس تنجح^(٤) .

* * *

النبي الأمى

بعث الله محمدا عليه السلام أميا — أى لا يقرأ ولا يكتب ، ولم ينقل أن الله تعالى بعث نبيا أميا غيره ، فهو وصف خاص لا يشارك محمدا — صلى الله عليه وسلم — فيه أحد من النبيين . والأمية آية من أكبر آيات نبوته ، فانه جاء بعد النبوة بأعلى العلوم النافعة ، وهي ما يصلح ما فسد من عقائد البشر وآخلاقهم وآدابهم ، وأعمالهم واحكامهم ، وعمل بها ، فكان لها من التأثير في العالم ما نم يكىن ، ولن يكون لغيره من خلق الله^(٥) .

وحيينما جاء الإسلام كانت الأمية متفشية في بلاد العرب فلم يكن هناك من يكتب بالعربية — كما يذكر ابن عبد ربه — الا سبعة عشر انسانا وهم على بن أبي طالب ، وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبد الله ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبيان بن سعيد بن العاص وخالد بن سعيد أخوه ، أبو حذيفة بن عتبة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وحاطب بن عمرو ابن عبد شمس ، والعلاء بن الحضرمي ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وحويطب بن عبد العزى ، وأبو سفيان بن حرب ، ومعاوية ولده ، وجهين بن الصلت بن مخرمة^(٦) .

ويقال انه كان للنبي — صلى الله عليه وسلم — ثلاثون كاتبا منهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب^(٧) . وانختلف

(٤) العمدة ٦٥/١

(٥) تفسير المغار ٢٢٥/٩

(٦) العقد الفريد ٢٥/٤ • وفتح البلدان للبلاذري ٤٥٧

(٧) صبح الأعشى ٩٢/١

في هذا العدد فذكر انهم ثلاثة وعشرون – أو خمسة وعشرون ، وأوصلهم القرطبي في تفسيره الى ستة وعشرين وأوصلهم « الشبرامسي » الى أربعين ، وأوصلهم العراقي الى اثنين وأربعين ، وأوصلهم البرهان الحلبي الى ثلاثة وأربعين^(٢٨) .

ولكنا نرى أن العدد مبالغ فيه الا اذا أدخلنا في هذا العدد من كان يكتب له الكلمة والكلمتين ، والجملة والجملتين . ولم يكتب للرسول – عليه السلام – الا الوحي من ناحية الرسائل والمعهود من ناحية أخرى وكل ذلك لا يحتاج الى هذا العدد الهائل من الكتاب ، في وقت كان عدد انكتاب قليلا حتى أنه لم يكن هناك من الكتاب عند بزوج شمس الاسلام الا سبعة عشر كاتبا ذكروا على سبيل الحصر .

وقد ذكر الجھشیاری أسماء ثمانية كانوا يكتبون للرسول تلقیا منه – أى الوحي او الرسائل او المفاصیم – وهم : على وعثمان وأبی بن کعب وزید بن ثابت وخالد بن سعید ومعاوية ومعیقیب بن أبي فاطمة حلیف بنی اسد الذي كان يكتب مفاصیم الرسول وعبد الله بن ابی السرح . وذكر أسماء اخیر لرجال كتبوا في عهد النبی : هم :

المغيرة بن شعبه والحسین بن نمیر وكانا يكتبان ما بين الناس .

وعبد الله بن الأرقام والعلاء بن عقبة وكانا يكتبان بين القوم في قبائلهم ومیاھهم وفي دور الانصار بين الرجال والنساء .

وحنظلة بن الربيع الذي كان خلیفة كل كاتب من كتاب النبی اذا غاب عن عمله^(٢٩) .

وهذا يعني أنه كان للنبی كتاب معروفون على سبيل الحصر ، كما

(٢٨) انظر : الكتانی : الترتیبات الاداریة ١١٥/١ وما بعدها .

(٢٩) الجھشیاری : كتاب الوزراء والكتاب ص ١٦ .

أنهم عرفوا نظام « الكاتب الاحتياطي » الذي يسد مسد من يغيب . وما يذكره الجهشيارى يدل على أن الكتاب أيام النبي كانوا نوعين :

النوع الأول : الكتاب المباشرون الذى يتلقون من النبي — عليه السلام — مباشرة فيكتبون له الوحي والرسائل .

النوع الثانى : كتاب الدولة — على ما في هذا التعبير من توسيع وسماحة — وهم من يسجلون ما يحتاج إلى تسجيل من غنائم الحروب وأنصبة الناس وحاجات قومهم وما شابه ذلك .

وأقل من ذلك بكثير النساء اللائى كن يكتبن مثل الشفاء بنت عبد الله التي كانت كاتبة في الجاهلية ، وحفصة بنت عمر ، وأم كلثوم بنت عقبة . أما أم سلمة فكانت تقرأ ولا تكتب^(٣٠) .

* * *

هل كتب الرسول في حياته؟

ربما كان السبب في اثارة هذا السؤال على الرغم من نص القرآن على أمية النبي — عليه السلام — هو ما جاء في كتب الحديث والسير وأشهرها البخارى^(٣١) من أن النبي — عليه السلام كان يطلى على بن أبي طالب صلح الحديبية بحضور مندوب قريش : سهيل بن عمرو ، فلما قال النبي — عليه السلام — « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » ، قالوا : لا نقر بهذا ، لو نعلم أنك رسول الله ما منعنك شيئاً ، ولكن أنت محمد بن عبد الله ، فقال : أنا رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله ، ثم قال لعلى : امح رسول الله ، قال على : والله لا أمحوك أبداً ، فأخذ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الكتاب ، وليس يحسن أن يكتب فكتب . هذا ما قاضى محمد بن عبد الله لا يدخل مكة السلاح ألا السيف في القرباب ، وإن لا يخرج من

(٣٠) فتوح البلدان ٤٥٨ .

أهلها بأحد أن أراد أن يتبعه ، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً أن أراد أن يقيم بها ٠٠٠ «^(٣) .

وأثار هذا الخبر جدلاً طويلاً بين العلماء عرضه الكتاني بتفصيل^(٢) محوره مفهوم أمية الرسول ومداها ٠ وهذه الآراء ثلاثة تنحصر في ثلاثة هي :

الرأي الأول — أن أمية الرسول كانت قبل ورود القرآن ، وبعده ما تحقق أميته ، وتحقق معجزته لا مانع من كتابته بالتعليم فتكون معجزة أخرى ٠

الرأي الثاني : قريب من الرأي الأول ولكنه يجعل تعلمه مقيداً محدوداً ، فلعله لكتلة ما أملى على كتاب الوحي وكتاب السنن والكتب إلى الملوك عرف من الخط وفهمه وكتب الكلمة والكلمتين كما كتب اسمه الشريف يوم الحديبية . وليس كتابته لهذا القدر البسيط مما يخرجه عن كونه أمياً .

الرأي الثالث : أنه ظل على أميته المطلقة — وأن تحريكه يده وهو لا يحسن الكتابة كان معجزة لوقتها لأنه « إنما حركها فجأة المكتوب صواباً » .

والحقيقة أن الرأي الأول ليس عليه دليل لأن القرآن نص على أمية الرسول في سورة مكية هي سورة الأعراف ، وأكد ذلك بأنص عليه في سورة مدنية نزلت بعد استقرار المسلمين في المدينة بسنوات وهي سورة الجمعة وهي من أواخر السورة المدنية فهي الرابعة والعشرون نزولاً بالنسبة للسور المدنية وعددتها ٢٨ سورة . وهي العاشرة بعد المائة بالنسبة للقرآن كلها . ووصفه عليه السلام بالأمية في آيتها الأعراف بصفة خاصة وصف يدل على الثبوت دون ارتباط بقبيلية أو بمعجمية .

(٣١) البخاري كتاب الفضاء ١٧٩/٥ وصحيف مسلم : باب صلح الحديبية ٤٢٠/٤ مع اختلاف في اللفظ [وفي مسلم في رواية البراء بن عازب أن علياً حينما رفض محو رسول الله . قال له النبي : أرني مكانها فلأراه مكانها وكتب (ابن عبد الله) ٤٢٢/٤ وأنظر المريزي : امتناع الأسماع ٢٩٦ وسيرة ابن هشام ٢٢٩/٣ وليس فيهما ذكر بأن النبي كتب بيده .]

(٣٢) الترتيبات الادارية ١٧٢ - ١٧٧ .

والرأي الثاني ظاهر التهافت ، لأن الذين قالوا به يأخذهم التردد والاحذر والحرج فلا يقطعون بالقول ، فيعبرون بـ « لعله » ثم ما قيمة كثرة ما أملى على كتاب الوحي وكتاب السنن والكتب إلى الملوك « اذا كان ما سينتعلمه من كل ذلك هو الكلمة والكلمتين وكتابه اسمه مما لا يخرجه عن كونه أميا .

والرأي الثالث غير مستساغ ، وبعيد عن التصور لأن تحريك اليد بالكتابة دون فهم لها ومجيء المكتوب صوابا وذلك معجزة .. أقول كل ذلك غير مستساغ وظاهر الافتعال . والقائلون به يعوزهم الدليل ...

وأمام هذه المسألة أو هذه الواقعة .. أو ما قيل أنه حدث من محو وكتابة يوم الحديبية في حاجة إلى وقفة نخلص منها إلى ما نراه يقينا أو قريبا من اليقين :

١ - فهناك اضطراب واختلاف كبير في الروايات في كتب الحديث والسيرة : فاحدى روایات البخارى تنص على أن النبي عليه السلام لم يكتف بمحو « رسول الله » وكتابة « ابن عبد الله » مكانها بل انه استقل بكتابة قدر كبير من الكتاب بينما روایات الإمام مسلم بعضها نص على المحو ولم يذكر أنه — عليه السلام — كتب . واحدى الروايات تذكر أنه سأله عليا عن مكان « محمد رسول الله » في كتاب الصلح ، فمما « رسول الله » وكتب « ابن عبد الله » بيده ... وليس في واحدة من هذه الروايات أن النبي عليه السلام أضاف أكثر من ذلك .

٢ - هذا وليس في سيرة ابن هشام أى ذكر للمحو والكتابة بل ذكر اعتراض سهيل بن عمرو على « بسم الله الرحمن الرحيم » و « رسول الله » .. فاستبدل بهما « باسمك اللهم » و « ابن عبد الله » كما لم يذكر أى اعتراض من على .

وكان عمر بن الخطاب هو أشد المعترضين على الصلح ابتداء مما نسميه بالمصطلح الحديث « المحاديث التمهيدية » وواجهه في غضب ونقمة أبا بكر باعتراضه هذا ، وعبر عن ذلك للنبي — عليه السلام — واعتبر

هذا « اعطاء للدنية في الدين » ومع ذلك استجاب عمر للنبي عليه السلام فاصاح لما رأى ، بل أبدى من الندم ما أبدى بسبب اعتراضه هذا فكان بقول « ما زلت أتصدق وأصوم ، وأصلى وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا » (٣٣) .

٣ — ويذكر المريزى أن الصلح كان على غير رغبة الناس ، ونم يشر إلى أى اعتراض من على ، وأن الاعتراض على الصيغة كان عاما وبخاصة استهلال العهد ويذكر أن سهيل بن عمرو حينما أصر على استبدال « محمد بن عبد الله » بـ« محمد رسول الله » ضج المسلمون منها حتى ارتفعت الأصوات ، وقام رجال يقولون : لا نكتب الا محمد رسول الله . وأخذ أسيد بن حضير وسعد بن عبادة — رضى الله عنهمما بيد الكاتب (وهو على) فأمسكاهما وقالا : لا تكتب الا محمد رسول الله والا فالسيف بيننا ... فجعل رسول الله يخضهم ، ويمىء اليهم بيده اسكنوا ... وقال لعلى : أنا محمد بن عبد الله فأكتب فكتب « باسمك اللهم ، وهذا ما اصطلاح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو ... » (٣٤) .

وهذه الرواية هي الأقرب إلى العقل وإلى طبيعة الواقع والأحداث فالغضب والاعتراض على الصلح كان عاما .. وما كان لعلى — وهو الذي تربى في بيت النبوة — أن يخالف عن أمر النبي ويمتنع عن كتابة أو محو عبارة . ومن عجب أن روایات « المحو » تذكر أن عليا محا بيده « بسم الله الرحمن الرحيم » وهي آية قرآنية ليستبدل بها عبارة كثرة الورود في الجاهلية وهي « باسمك اللهم » فكيف غاب عنه أن محو هذه العبارة لا يقل ان لم يكن أشد على نفس المؤمن من محو « رسول الله » ليستبدل بها « ابن عبد الله » .

٤ — وأرى أن تلك الرواية التي تذكر رفض على المحو ثم رضوخه بعد ذلك حتى لو كان التغيير قد تم بيد النبي — صلى الله عليه وسلم —

(٣٣) سيرة ابن هشام ٢٢٩/٣ .

(٣٤) اهتاج الأسماع ٢٩٧ .

من وضع الشيعة أو غلاتهم لتبير قبول على التحكيم والصالح مع معاوية
بعد ذلك بثلاثين سنة^(٣٥) **ولانظر بعض ما جاء في ذلك :**

« ... وحضر عمرو بن العاص عند على ليكتب القضية بحضوره
فكتبو باسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين ..
قال عمرو : اكتب اسمه واسم أبيه — وهو أميركم وأما أميرنا فلا . فقال
الأحنف بن قيس : لا تمح اسم أمارة المؤمنين فاني أخاف ان محوتها أن
لا ترجع اليك أبدا ... فأبى ذلك على مليا من النهار ، ثم ان الأشعث بن
قيس قال : امح هذا الاسم . فمحى ، فقال على الله اكبر سنة بسنة^(٣٦) .
والله انى لكاتب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوم الحديبية فكتبت :
محمد رسول الله ، وقالوا : لست برسول الله ، ولكن اكتب اسمك واسم
أبيك ، فأمرني رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بمحوه فقلت : لا استطيع ،
فقال ، أرنيه ، فمحاه بيده ، وقال انك ستدعى الى مثلها فتجيب

لقد أثار قبول على التحكيم انشقاقة فادحة في جيشه وأدى الى خروج
آلاف من جنوده عليه وهم الذين سموا بعد ذلك بالخارج . وانتهى الأمر
بمقتله على يد خارجي هو عبد الرحمن بن ملجم ، بل كان الكثيرون من أنصار
على ورعوس حواريه من يعارض التحكيم . وكأنما قد وجد الشيعة أو
المتحمسون منهم في الحديبية مخرجا وتبيرا لقبول على التحكيم وصيغة
الصلح ومن ثم كان تعمد خلق وجوه شبه بين الصلحين وخاصة فيما يتعلق
بالتنازل عن « لقب الرسالة » في الحديبية . ولقب الامارة في التحكيم .

* * *

وكتابة على جبل سلع :

ويشير في هذا المقام أيضا ما هو مكتوب حفرا على جبل سلع^(٣٧) ،
على اليمين كتب اسم أبي بكر وعلى اليسار « أنا محمد بن عبد الله » و « أنا

(٣٥) أنظر الكامل لابن الأثير ٣١٦/٣ (وكان ذلك سنة ٣٧ هـ) .

(٣٦) من معانى السنة : الطريقة والوجه والصورة ، والامام على يقصد أن ما يحدث
اليوم إنما هو صورة لما حدث أيام النبي عليه السلام .

(٣٧) سلع جبل قريب من المدينة .

على بن أبي طالب » ويقال ان ذلك كتب سنة ٥ للهجرة وهو زمن غزوة الخندق .

ولا يستبعد الدكتور حميد الله صحة هذه الكتابة التي شاهدها بنفسه في شهر محرم سنة ١٣٥٨ هـ^(٣٨) . ويكتب تحت الصورتين غير الواضحتين اللتين عرضهما في كتابه لهذه الأسماء الثلاثة « ... كان النبي من بهم ينحتون فقال انحثوا أسمى أيضاً معكم » .

وفي بحث قيم انكر أحد الباحثين أن تكون هذه الكتابة منسوبة حقيقة لأصحاب هذه الأسماء مستدلاً بما يأتي :

١ - لو كان هذا صحيحاً لكتب على بن أبي طالب - رضي الله عنه - محمد رسول الله لا محمد بن عبد الله .

٢ - لو ثبتت هذه الكتابة في عصر النبوة لكان لابد لها من مثل في أي مكان آخر مثل غارثور أو جبل أحد أو غير ذلك من حصون اليهود التي تم تطهيرها في بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة أو خيبر فيما بعد ذلك . ولكن المسلمين لم يكن لهم وقت مثل هذا النحت .

٣ - لو أيدنا هذا الرأي الذي يرى أن هذه الكتابة من عهد النبوة لرأينا مستشرقاً مثل مرجلبيوث يأتي فيدعى أن محمداً لم يكن أمياً ، وأنه الذي كتب بخطه هذه الكلمة « محمد بن عبد الله » . وقد قيل ذلك قبل هذا الكشف . فالمستشرق الالماني « نلديك » في كتابه « تاريخ القرآن » يتساءل « هل كان النبي محمد يعرف القراءة والكتابة ؟ » ثم يزعم أن لفظة أمي الواردة في القرآن لا تعنى جهل الرسول تماماً بالقراءة والكتابة ، بل تفيد أنه لا يعرف الأسفار القديمة . كما جاء في « قاموس الإسلام Dictionary of Islam » ما نصه « ... ومع ذلك فمن المحقق أنه كان يتظاهر بأنه يجهل القراءة والكتابة لكي يجعل إنشاء القرآن معجزاً »^(٣٩) .

٣٨) مجموعة الوثائق السياسية ٢٠ .

٣٩) انظر « الاستراتيجية الإسلامية في غزوته الخندق والكتابة التي وجدت على جبل سلع » بحث للدكتور عبد الباقى قصة ٦٦ - ٨١ من مجلة « السدار » ، زبيع الأول - ١٣٩٧ م فبراير ١٩٧٧ م .

وخلصة رأينا في هذه المسألة :

١ — أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قطع بأميته من أول يوم نزل فيه الوحي في قوله « ما أنا بقاريء » كما قطع القرآن بذلك في الآيات التي عرضناها . ويجب أن لا تصرف عن معناها لعدم وجود مسوغ للتأويل .

٣ — أن الأمية لازمته من أولبعثته إلى أن لقى ربه لارتباط الحكمة بها ارتباطا دائمًا غير موقوت وهي عمق القدرة والاعجاز في هذه الرسالة الربانية . . . فنزلوها على أمي أبلغ في الأثر والدلالة من نزولها على قارئ كاتب .

٤ — وهي أمية شاملة تصدق على ما كان بالعربية وما كتب بغيرها يدل على ذلك أنه أمر زيد بن ثابت أن يتعلم اللغة السريانية حتى يقرأ له هذه الكتب التي ترد إليه بهذه اللغة^(٤) .

٥ — ولم يرو عنه عليه السلام — في خبر صحيح — أنه كتب بنفسه آية أو رسالة أو توجيها . ولو لم يكن أمياً ما اتخذ من الصحابة من يكتب له الوحي أو يكتب له الرسائل إلى الملوك والأمراء والولاة والقادة والناس . على ما سنراه في الفصول التالية .

ومنرى أنه قد كتبت للنبي — صلى الله عليه وسلم — كتب وعهود ، وقد كانت البدايات شفاهة لا كتابة ، وكانت تسير مع الدعوة في ارتباط طردي : تتسع دائرة الدعوة . . . يزداد الاتصال بالآخرين . . . يتم بالدين الجديد « ارتباط » تنشأ عنه علائق والتزامات جديدة منها التعبدى ومنها الخلقي ، ومنها الاجتماعى . وتكون هناك « اتفاقات » شفوية ، و « بيعات » غير مكتوبة . وكل أولئك كان تمهدات لعهود تكتب ، وعقود تفصل فيما بعد . ووراء كل أولئك بواسعه ودفائم متعددة الألوان . وبيان ذلك يقتضى مواكبة الدعوة والداعية في المسيرة المتغيرة من بدايتها وهو موضوع الفصل الثاني من هذا القسم .

. ٢٧٩/٢) أسد الغابة (٤٠)

الفصل الثاني

البواحث والدروافع

في مكة : سفوات الاعداد

كان نزول جبريل على محمد — عليه السلام — في غار حراء بداية عهد جديد في تاريخ البشرية . . . وكانت « أقرأ » هي بداية عهد النبوة الخاتمة ، التي سينقطع بعدها خبر السماء عن الأرض بعد تمام الرسالة وأكمال قواعد الإسلام الدين العالمي الخالد .

وعلى مدى ثلاثة عشر عاماً كانت الدعوة إلى الله على بصيرة ونقاء وتقوى . ولaci النبي — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه من عنت الكفار وخشونتهم وأصرارهم على الباطل ما هو معروف في السيرة . . . ولكنـه كان دائماً يتدرع بالإيمان والصبر والتحمل والسماعة ، وكانت الكلمة التي يرطب بها لسانه دائماً « اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » . وكلما اشتدت قريش في أذاها وعنجهيتها ازداد اصراراً على مواصلة جهوده في الدعوة إلى الله .

ومن الطبيعي أن يعرض الرسول أولاً الإسلام على الصق الناس به من آل بيته وأصدقائه . وهؤلاء لم تخالجهم ريبة قط في عظمة محمد وجلال نفسه وصدق خبره ، فلا جرم أنهم السابقون إلى مؤازرته واتباعه . آمنت زوجته خديجة ومولاه زيد بن ثابت ، وابن عمه علي بن أبي طالب — وكان صبياً يحيا في كفالة الرسول — وصديقه الحميم أبو بكر . ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام فأخذ فيه أهل ثقته ومودته عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص ، وآمن القس ورقة بن نوفل . . . وأسلم الزبير بن العوام وأبو ذر الغفارى وعمرو بن عنبسة وسعيد بن العاص . ونشأوا الإسلام في مكة بين من نور الله قلوبهم ، مع ان الاعلام به

كان يقع في استخفاء، ودون مظاهره من التحمس المكتشف أو التحدى المسافر ... واستمر هذا الطور السرى للدعوة ثلاثة سنين ثم تنزل الوحي يكلف الرسول بمعاملة قومه ومجابهة باطليهم ومحاجمة أصنامهم جهاراً^(١).

ثم ان الله عز وجل أمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يصدع بما جاءه منه ، وأن يبادى الناس بأمره وأن يدعو اليه... قال الله تعالى له «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين»^(٢) وقال تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين ، واحفظ جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، وقل انى أنا النذير المبين»^(٣) .

* * *

وانتسعت دائرة الدعوة في نطاق مكة ومع اتساع الدائرة دخل عشرات من الناس في الدين الجديد أغلبهم من المستضعفين الذين لم يكن لهم مكانة اجتماعية يرتکرون عليها ، ولكن اسلام حمزة وعمر كان ولا شك كسباً كبيراً للدين الجديد . ومع اتساع دائرة الدعوة اتسعت دائرة المعاناة ، ومن ثم كان لابد من الخروج الى دائرة أو دوائر أوسع . وكان هذا التوسيع أو **هذا الخروج الذي يمثل اول العلائق « بالخارج » يتمثل في عملين :**

الأول : هجرتا بعض المسلمين الى الحبشة .

الثاني : هجرة النبي وال المسلمين من مكة الى المدينة وما سبقها من بيعتى العقبة الأولى والثانية .

كانت الهجرة الأولى الى الحبشة في السنة الخامسة منبعثة لما اشتد البلاء والأذى بال المسلمين . قال ابن اسحق : فلما رأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما يصيّب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العانية

(١) محمد العزالى فقه السيرة : ٧٥

(٢) الحجر ٩٤

(٣) الشعراء ٢١٤ - ٢١٥ سيرة ابن حشام ٢٦٤/١

بمكانته من الله ومن عمه أبي طالب ، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجمت إلى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما انت ، فخرج عند ذلك المسلمين من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفرارا إلى الله بدينه^(٤) . وكان أول من خرج من مكة فارا بدينه إلى الحبشة عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتبعه الناس ، فخرج أحد عشر رجلا وأربع نسوة متسللين ، منهم الراكب والماشى إلى أن ادركتوا سفينتين للتجارة حملوهم فيها إلى أرض الحبشة فخرجت قريش في آثارهم فلم تدركهم . ولم يمكنوا في الحبشة الا شهرين . وبلغهم أن قريشاً أسلمت فعاد بعضهم ، وبلغهم أن اسلام قريش كان باطلاً فدخلوا مكة وما منهم من احد الا بجوار او مستخفيا . واقام المسلمون بمكة وهم في بلاء .

ثم كانت هجرة المسلمين الثانية إلى الحبشة وكان على رأس المهاجرين جعفر بن أبي طالب ومعه عدد من المسلمين وأرسلت قريش في آثارهم عمرو بن العاص وآخرين ومعهم هدايا إلى نجاشي الحبشة ، وحاولوا أن يشوا بالمسلمين عند ملك الحبشة ويشوهوا نظرة الاسلام إلى المسيح بن مریم . ولكن جهودهم أخفقت . . . وعامل النجاشي المسلمين معاملة طيبة وأذن لهم منزلة كريما^(٥) .

ويطرح الدكتور هيكل^(٦) سؤالاً تقريرياً هو : أكان كل القصد من هذه الهجرة التي قام بها المسلمين بأمر النبي ورأيه الفرار من كفار مكة وما يلحقون به من الأذى ؟ أم أنها كان لها كذلك غرض سياسي اسلامي رمى محمد من ورائه إلى غاية عليا ؟ من حق مؤرخ محمد أن يسأل عن هذا

(٤) ابن هشام ٣١٥/١ .

(٥) انظر المقربي : امتاع الأسماء ٢٠ - ٢٢ .

(٦) حياة محمد ٦٩ .

بعد ما ثبت من تاريخ هذا النبي العربي في أطوار حياته جمیعاً أنه كان سیاسياً بعيد الغور كما كان صاحب رسالة وأدب نفسي لا يدانيه غیرهما في السمو الجلال والعظمة مدان .

ويميل الدكتور هيكل إلى تفسير هاتين الهجرتين إلى الحبشة تفسيراً سیاسياً مستأنساً في تأييده بما يروى من أن أهل مكة لم يستريحوا إلى خروج من خرج من المسلمين إلى الحبشة ، بل بعثوا رجلين إلى النجاشي ومعهما الهدایا التغییة ليقنعوا بأن يرد المسلمين من مواطنینهم اليهم . والحبشة ونجاشيهما كانوا نصاری ، فليس تخشی قریش عليهم من الناحية الدينية أن يتبعوا محمداً .

واعتقد أن « تسمیس » الهجرة إلى الحبشة أى افتراض أنها كان لها غرض سیاسي إسلامی زمی محمد من ورائه إلى غایة علیا ، اسراف لا مسوغ له . وكون النبي – صلی الله علیه وسلم – سیاسياً بعيد الغور لا يلزم منه طبع كل ما كان له من تصرفات وأعمال وقرارات بطبع سیاسي .

ولعل عبارة ابن اسحق التي نقلها ابن هشام تبرز لنا الباعث الذي حدا بالنبي – عليه السلام – إلى أمر أصحابه بالهجرة وهو « ما يصيب أصحابه من البلاء » و « ما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عممه أبي طالب »^(٧) لقد اشتد البلاء المسلمين والإذاء ، ولم يكن النبي يستطيع أن يدفع عنهم الأذى حتى عن أقرب الناس إليه : ابنته رقیة وزوجها عثمان ابن عفان . أما هو فلكان هناك من تتقى قریش هیبته وهو عمه أبو طالب . فعز على النبي – صلی الله علیه وسلم – أن يكون في عانیة المسلمين في هذه الحال من الاضطهاد والإذاء فأمرهم بالهجرة فراراً بذنوبهم وبحثاً عن الطمأنينة والسلامة .

(٧) كانت الهجرتان إلى الحبشة سنة ٥ منبعثة . ومات أبو طالب وخديجة سنة ١٠ منبعثة وسمى العام عام الحزن .

وقد ببر النبي - عليه السلام - اختياره الحبشة دون غيرها بتبريرين هما : عدالة حاكمها وصدق أهلها . وربما كان مصدر ذلك تدينهم الصحيح يدل على ذلك ما دار بين النجاشي وبين رسول الكفار في طبيعة المسيح - عليه السلام - وقول القرآن فيه .

وما حرص الكفار على رد المسلمين من الحبشة الا نكبة فيهم وتضييقا عليهم لأنهم رأوا في نجاحهم في الترار اهانة لهم ووصما بالعجز والضعف ، وهى عنجهية لازمتهم في صلح الحدبية اذ أصر سهيل بن عمرو على أن ينص في الصلح على أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم . ومن جاء قريشا من مع محمد لم يردوه عليه^(٨) . بل انهم كانوا يخشون أيضا أن ينتشر الاسلام على أيدي المهاجرين في الحبشة فنصرانية أهلها لا تقف حائلا دون ذلك كما ذهب الدكتور هيكل ، وكما سمعت بعد قليل :

ولكن هذه الهجرة كان لها ولا شك آثار طيبة وان كانت غير مباشرة وتنتخص فيما يأتي :

١ - أنها أثبتت للكفار قدرة المسلمين على الحركة والتصرف والسياحة في آفاق خارجية .

٢ - أنها نقلت - لأول مرة - اسم الاسلام خارج الجزيرة العربية ، وبدأت عيون الأحباس تنفتح لأول مرة على اسلام هؤلاء المهاجرين ، وكلن ذلك ما تخشاه قريش دون شك . وتحققت في هذا المجال الديني نتيجة طيبة وان كانت جزئية ، فقد نقل ابن اسحق انه قدم بعد ذلك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بمكة عشرون رجلا او قريب من ذلك حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد ، فجلسوا اليه ، وكلموه وسائلوه ، ورجال من قريش في أندیتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا

(٨) انظر سيرة ابن هشام ٣/٢٢٨.

من مسألة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عما أرادوا دعاهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن غاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وأمنوا به ، وصدقوا ، وعرفوا منه ما كان يوصى لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش ، فقالوا لهم : خبكم الله من ركب !! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتدون لهم لتأتونهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ؛ ما نعلم ركبا أحمق منكم ... فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهمكم ، لئاماً نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نألف أنفسنا خيرا^(٩) .

ونعود فنؤكد أن هجرة المسلمين إلى الحبشة لم تكن ذات مضمون سياسي ، وكانت محدودة الهدف ، أو بتعبير آخر كانت في المقام الأول « ذاتية الهدف » ... فراراً بالدين وبحثاً عن السلامة ، ومن البدهي أن نقول أن ذلك لا يمنع من تحقق نتائج تبعية لم تكن منشودة متواخة في الأصل ..

* * *

الهجرة إلى الدين أو الطريق إلى الدولة :

والتشريع المركزي — ومصدره الأول هو القرآن — كان تركيزه الأساسي على أصول العقيدة والدعوة إلى وحدانية الله وهجر عبادة الأصنام والتأمل في حلق الله ومظاهر عظمته وقدرتها واستثنارة الحسن والشعور والوجدان انفطراً ، مع التذكير بأخبار الأنبياء والأمم السابقة للاتعاظ والاعتبار^(١٠) . وفي الفترة المكية وعلى مدى ثلاثة عشر عاماً وجدت نواة المجتمع الإسلامي ، وقررت توسيعه الإسلام الأساسية بصفة عامة^(١١) .

(٩) سيرة ابن هشام ٣٧٠/١ .

(١٠) انظر في تفصيل ذلك : مناع العطان : التشريع والفقه في الإسلام ٤٢ - ٥١ .

(١١) د. ضياء الدين الرئيس : النظريات السياسية الإسلامية ٢٥ .

وَمُضِيَ عَلَى الدُّعْوَةِ الْوَلِيدَةِ عَقْدٌ مِنَ الزَّمَانِ بَلَغَ عَدْدُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ مِئَاتٌ وَنِكَنَ الْإِيَّادِ اشْتَدَ بَهُمْ بَعْدَ مَوْتِ خَدِيجَةَ وَعَبْدِ الْمَطْلَبِ وَبَلَغَ الْعَنَادِ بِقَرِيشٍ أَقْصِيَ مَدَاهُ ، وَدَأَبَتْ عَلَى إِيَّادِ الْمُسْلِمِينَ وَاشْتَدَوْا فِي هَذَا الْإِيَّادِ . . . وَأَرَادُوا أَنْ يَصْعُدُوا مِنْ مَسْلَكِهِمْ بِضَرْبِ الْإِسْلَامِ فِي شَخْصِيَّةِ النَّبِيِّ بِالْخَلْصَنِ

مِنْهُ .

وَأَدْرَكَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّ تُرْبَةَ مَكَةَ لَمْ تَعْدْ تُسْمَحُ لِلنَّفَثَةِ الْجَدِيدِ بِأَنْ يَجُودَ وَيَتَرْعَرِعُ ، فَبِدَا بِنَظَرِهِ يَخْرُقُ حَدُودَ مَكَةَ . . . وَبِدَا يَتَجَهُ بِنَظَرِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَكَانَتِ الْهِجْرَةُ . . . وَقَبْلَ الْهِجْرَةِ كَانَ هُنَاكَ مَعَ أَهْلِهِ لِقاءَاتٌ ثَلَاثَةٌ كُلُّ مِنْهَا مُورِقٌ مُثْرٌ :

اللقاء الأول : حينما كان النبي يعرض نفسه على القبائل في الموسمن بعد أن اشتد عليه أذى الكفار واستهزأ بهم به بعد الاسراء والمعراج . . . وكان يقول وهو يعرض نفسه على القبائل — وهو أول تطلع إلى الخروج بالدعوة من مكة إلى مجتمع آخر : من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني حتى أبلغ رسالة ربى فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربى ؟

هذا وعمه أبو لهب وراءه يقول للناس : لا تسمعوا منه فإنه كذاب^(۱۲) .

ثم كان لقاءه في هذا الموسم مع جماعة من الخرج : عرض عليهم الإسلام ، وقرأ عليهم القرآن . . . وأسلموه وقالوا « أنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك اليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك »^(۱۳) .

(۱۲) امتاع الأسماء ۳۱ .

(۱۳) سيرة ابن هشام ۲۹/۲ .

وكانوا ستة انصرفوا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – راجعين
إلى بلادهم ، وقد آمنوا وصدقوا .

اللقاء الثاني : وهو ما يعرف في التاريخ ببيعة العقبة الأولى^(١٤) وحضرها من الأنصار اثنا عشر رجلاً بايعوا النبي – عليه السلام – على لا يشركوا بهما شيئاً ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا بيتهن يفترضونه من بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصوه في معروف . وبعث معهم النبي – عليه السلام – مصعب بن عمر ليقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين^(١٥) .

اللقاء الثالث : وكان مع النبي – صلى الله عليه وسلم – في الموسم الثالث . وكان عدد الانصار ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين بايupoه على أن يمنعوه وأهله مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وأولادهم ، وعليهم أن يحاربوا معه الأسود والأحمر ، وأن ينصروه على القريب والبعيد . وشرط لهم الوفاء بذلك والجنة^(١٦) .

وكانت كل هذه البيعات تقام شفاهة ولم ينقل فيها نص مكتوب .
وأهم ما يميز العهد المكي مما يتعلق بموضوعنا :

١ – أنه كان عهد التأسيس العقدي والخلقي بعيداً عن التفصيلات والتفرعات .

٢ – أن العلاقات بين الداعية وهو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وغيره كانت – في أغلبها الأعم – لا تخرج عن النطاق المحلي .

(١٤) يطلق الدكتور حميد الله على هذه البيعة بيعة العقبة الثانية أما اللقاء السابق فهو بيعة العقبة الأولى . [الوثائق السياسية ٢٨ – ٢٩] .

(١٥) سيرة ابن هشام ٣٢/٢ .

(١٦) انظر : حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ٣٢ . وأنظر تفصيل البيعة في ابن هشام ٤٦ – ٣٧/٢ .

٣ — أن العهود أو البيعات كانت شفوية لا تخضع لتقليد شكى أو فنى معين وكانت تقسم باليجاز ووضوح المضمون وتحديده .

٤ — أن كل أولئك كانت تمهدًا طبيعياً لخطوة كبرى هي خطوة تكوين الدولة الإسلامية في يثرب وكانت الهجرة في وقتها المناسب إلى مكانها المناسب المنشود .

* * *

في المدينة : دولة الإسلام

والهجرة هذه المرة تختلف عن هجرة المسلمين إلى الحبشة من عدة وجوه .. إذ كانت الهجرة إلى الحبشة هدفها الأساسيبعد عن مكة أرض الظلم والاضطهاد والتعذيب والجبرية بحثاً عن الأمان والسلامة الذاتية . أما هجرة النبي — عليه السلام — إلى مكة فلم تكن فراراً من أجل حماية النفس وإن كان الحفاظ على الحياة وسلامة النفس مما يدعو إليه اندیں . ولكن الهجرة كانت لهدف أساسى هو « نشر الدعوة وتتوسيع دائريتها » ... لقد أصبحت تربة مكة قاحلة شمطاً .. ترفض البذر ولا تقبل الماء ... وتحاول أن تخنق كل عود أخضر وتمتص كل نبات جديد ... نعم لابد من تربة جديدة ... ومعناة جديدة وعمل متواصل حتى تؤتى الدعوة ثمارها .

وكانت الهجرة إلى ما « هو أصلح » ، ولكنها لم تكن إلى ما « هو أسهل » ... وأثر النبي أن يتحمل مزيداً من الأثقال والأعباء في سبيل الوصول إلى نتائج مثمرة . ومن يستعرض التاريخ يكتشف عجباً . يكتشف أن محمداً — عليه السلام — كان في مكة يواجه عدواً واحداً يتمثل في الكفار . ولكنه في المدينة أصبح يواجه أعداء متعددين وجبهات متعددة .

هناك المافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول الذي عاش طيلة حياته يغلى قلبه بالحقد ، وتشور نفسه بالنفقة لأن ذلك الوافد الجديد سحب « الأرض من تحت رجليه » و « حرمه تاج الملك » وكان قاب قوسين منه أو أدنى .

وهناك اليهود : خيبر وبنو قريطة وبنو النضير وبنو قينقاع ... قبائل غنية منيعة تبحث عن « أمجاد مدفونة » وكانت تطمع أن يماثلها النبي الجديد .. ولكن خاب فلهم .. وبذات عيون الروم والفرس تتوجه نحو المدينة ، وترصد خطوات هذا الوافد الجديد الذي غير موازين القوى وموازين العقيدة في المنطقة .

أما قريش فما زالت على عدائها ، بل إن حقدها ازداد تضراً . وغضبها ازداد تسعراً ، فقد عز عليها نيلها من قبضتها محمد ومن معه من المستضعفين .

نعم خرج محمد إلى « الأصلح والقابل » ولكنه « الأعنى والأصعب » وهذا هو الفصيل الحاسم بين « الهجرة » بمفهومها التشريعى الانساني ، والفرار بمفهومه المفروع المهزوم ..

وفي المدينة أنشأ محمد — عليه السلام — دولة بكل ما يتطلبه مفهوم الدولة — لا بمعايير القديمة — ولكن بما يشترطه القانون الدولي والفقه الدستورى الحديث فى وقتنا الحاضر . وهو حكم لا اسراف فيه ولا شطط .

دولة المدينة وطبيعتها :

لم يكن في جزيرة العرب قبلبعثة دولة واحدة تجمع شعاراتها وكيانها تحت حكم واحد وربما كان هذا التفرق هو السبب في استعباد دولتي الفرس والروم للعرب طيلة قرطبة قرون سبقت مجيء الإسلام .

كانت مدن الحجاز تستقل كل واحدة منها بنفسها ، ولا تعرف لغيرها سلطانا عليها ، كان ذلك شأن مكة وشأن المدينة وشأن الطائف ، كان لكل واحدة من هذه المدن استقلالها ونظامها ، وكان الحكم فيها متأثرا بالعوامل التاريخية التي تعاقبت عليها ، فكانت السلطة في المدينة مثلاً موضع تنازع دائم بين الأوس والخزرج واليهود ... أما مكة فقد تقاسمت الأسر الكبيرة فيها شئونها العامة ، كانت أمور الكعبة لبني هاشم ، وكانت أمور الحرب لبني مخزوم ، وكانت الديات والمغامر لبني تيم وهلم جرا ...

وكان الخلاف في مبدأ الحكم بين شمال شبه الجزيرة وجنوبها أشد منه بين مدن الحجاز ، كانت اليمن قد اندمجت في وحدة سياسية قبلبعثة زيد بن علي قبل أن ترجع وحدة اليمن السياسية إلى اعتبارات اقتصادية تقتضي خصوصيتها لنظام مشترك كنظام اليمن ، أما في اليمن فقد تختت المصالح الاقتصادية المشتركة كقيام سد مأرب بأن توضع قواعد عامة للحكم يحترمها أهل البيئة جميعا .. ثم ان اليمن خضعت في عمود كثيرة لأطوار سياسية لم يعرفها الحجاز : عدت الحبشة ، وعدت فارس على استقلال اليمن ، وأقامت فيها حاكما تخضع جميع أنحائه لسلطانه . كان طبيعيا ازاء هذه الاعتبارات أن يقوم في أنحاء اليمن كلها على قاعدة معترف بها من أهلها جميعا ، ينفذها الحاكم بقوة القانون ان لم ينفذها الناس عن رضا واختيار .

ونظام القبائل في الbadie لم يكن يتفق ونظام الحضر في اليمن أو في الحجاز ، بل كان الغزو والسلب تحت امرة رئيس القبيلة أساس الحياة عند البدو ، وكان رئيس القبيلة هو القاضي ، وهو القائد الأعلى ، وهو الذي يصرف شئون القبيلة ما جل منها وما دق . وطبعاً أن يستند مثل هذا النظام إلى شخصية رئيس القبيلة وان يتاثر بمنطقه وحكمته^(١٧) .

(١٧) انظر دـ محمد حسين هيكل : الحكومة الاسلامية ٣١ - ٣٢ ، وأنظر في تفصيل ذلك الكتاب الأول من موسوعة التاريخ الاسلامي للدكتور أحمد شلبي ٩٠ - ١٢٧ .

فماذا فعل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد وصل إلى المدينة مهاجرا ؟ لقد بدأ في تكوين دولة بكل ما في هذه الكلمة من معنى . والدولة بالمفهوم الحديث جمع من الناس ، من الجنسين معا ، يعيش على سبيل الاستقرار على أقليم معين محدود ، ويدبرن بألواء لسلطة حاكمة لها السيادة على الأقليم وعلى أفراد هذا الجمع^(١٨) .

وقد نصت المادة الأولى من الاتفاقية الخامسة بحقوق الدول وأجراباتها التي عقدها الدول الأمريكية في مونتيفيديو في ٢٦ من ديسمبر سنة ٩٣٣ على ما يأْتي :

« يجب لكي تعتبر الدول شخصا من أشخاص القانون الدولي أن تتوافر فيه الشروط التالية :

- ١ — شعب دائم .
- ٢ — أقليم محدود .
- ٣ — حكومة .

٤ — أهلية الدخول في علاقات مع الدول الأخرى^(١٩) .

ودون اسراف أو تمحل نستطيع أن نقول أن المجتمع الذي استقر على أرض المدينة كان بوجود النبي — صلى الله عليه وسلم — وعلى مدى عشر سنوات — يمثل بكل معنى الكلمة دولة متكاملة توفرت لها كل الشرائط والأركان السابقة :

— فالددينة رقعة من الأرض .. أو أقليم له حدوده المميزة المعروفة عند سكانها وغيرهم .

(١٨) د. حامد سلطان : القانون الدولي العام في وقت السلم ٣٤٣ .

(١٩) السابق ٣٤٥ .

— والشعب هو « الشعب المسلم » . . . الذى كان قوامه الأوس والخرج أو الأنصار الذين فتحوا صدورهم وقلوبهم للدين الجديد ، والهاجرون الذين تركوا أموالهم وديارهم من أجل عقيدتهم . وقد جمع النبي — عليه السلام — بين هذه العناصر وصهرها في بوتقة واحدة ، فربطت بينهم قيم الحب والإيثار والأخاء . « وبهذه الألوان من التكافل والمشاركة يتحقق لمجتمع الإسلام ايجابية تجعله بتعبير الرسول — عليه السلام — كالجسد الواحد اذا اشتكتى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » . ويتحقق له قوة التماسك بحيث يصير « كالبنيان يشد بعضه ببعض » والإيجابية والتماسك ميزتان ضخمتان لا تتوافر ل كثير من المجتمعات » (٢٠) .

— أما الحكومة فهى حكومة الرسول التى اعتمد فى الحكم على ركيزتين صلبتين العدل والشورى .

— وكل أولئك جعل لهذه الدولة الجديدة أهلية كاملة فى التعامل كشخصية اعتبارية مع الآخرين .

* * *

البواعث والبدایات

وبوجود هذا الكيان الشرعى الجديد وهو الدولة الإسلامية وجدت مجموعة من العلاقات بعضها جديد لم يكن له وجود من قبل وبعضها كان له أصوله السابقة .

فمن العلاقات القديمة : علاقة النبي — صلى الله عليه وسلم — ومجتمع الكفار في مكة وما حولها وإن كانت هذه العلاقة قد تطورت

(٢٠) د. على جريشة : المشروعية الإسلامية العليا ٢٢٨ .

بالهجرة فتحولت من علاقة بين مجتمع كافر و « شخصية تحمل رسالة » و تتعرض للاضطهاد الى علاقة مرت بالراحل الآتية :

- ١ - علاقة بين المجتمع المكى ومجتمع المدينة الذى لم تعترف قريش بم مشروعية قيامه تحت قيادة محمد .
- ٢ - علاقة بين المجتمع المكى و « دولة » على رأسها محمد - عليه السلام - اعترفت بها قريش اعتقادا ضمنيا بصلاح الحسينية .
- ٣ - علاقة بين المجتمع المكى و الدولة الجديدة مع الاعتراف الصريح بمشروعية هذه الدولة وانضمام سكان مكة الى « جماعة المسلمين » أو الى الشعب المسلم ، فصاروا أعضاء وخلايا في هذا الجسد الواحد الذى اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

ومن العلاقات الجديدة : علاقة الدولة الناشئة بالعناصر الدينية الأخرى مثل اليهود وهم عدة قبائل أو تجمعات حول المدينة لها قلاعها ومزارعها وتجاراتها وذهبها وأموالها .

ومن هذه العلاقات الجديدة كذلك علاقة السلطة وعلى رأسها الرسول - عليه السلام - بطائفة لم يكن لها نظير في مكة وهي طائفة المتفقين التي كان على رأسها عبد الله بن أبي بن سلول . ومنها علاقة الدولة الجديدة بالعالم الخارجي متمثلا في حكامه وملوكه وشعوبه في مصر والشام وفارس والروم .

هذه العلاقات المختلفة كان لزاما على الدولة الناشئة أن تحددها وتكييفها تبعا لاعتبارات مصلحية انسانية تتعلق بالدين والدولة والقيم الأخلاقيات الجديدة . واعتمد منطق هذه العلاقات على ركيزتين أساسيتين :

الركيزة الأولى : مستمدۃ من قوله تعالى « ادع الى سبیل ربک بالحكمة والوعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي احسن ان ربک هو أعلم بمن ضل عن سبیله وهو أعلم بالمهتدين »^(۱) .

الركيزة الثانية : وهي مستمدۃ من قوله تعالى « اذن للذین یقاتلون بائיהם ظلموا وان الله على نصرهم لقدير »^(۲) .

والركيزة الأولى تمثل . الاصل الأصیل في قائمة المبادئ الاسلامية : الدعوة الى الله بالحكمة والوعظة الحسنة والجداول الشريف الحر بالتي هي احسن ، دون اکراه في الدين ، وقهر في العقيدة .

فإذا لم يأت الأسلوب الأول بالنتيجة المثمرة فالحرب هي الدواء المبر الذى لا منجي منه ولا هروب ، على حد قول الشاعر :

وَالنَّاسُ أَنْ ظَلَمُوا الْبَرَهَانَ وَاعْتَسَفُوا
فَالْحَرْبُ أَجْدِي عَلَى الدُّنْيَا مِنَ السَّلَمِ

وقد بدأت حروب النبي — صلی الله عليه وسلم — في السنة الثانية من هجرته من مكة إلى المدينة المنورة ، فقداد الرسول القائد — عليه الصلاة والسلام — ثمانی وعشرين غزوة وبعث وسبعا وأربعين سرية ، وكان من جملة ثمرات الغزوات والسرایا توحید شبه الجزيرة العربية تحت لواء اسلام^(۳) .

كل هذه العلاقات — الجديد منها وما كان له جذور وأصول قديمة في حالتي السلم وال الحرب — كانت « الكتابة » في شكل رسائل وعهود

(۱) النحل ۱۲۵ (وهي سورة مکیة) .

(۲) الحج ۳۹ (وهي مدنیة) .

(۳) محمود شیت خطاب : المسکریة العربیة الاسلامیة ۳۲ .
والفرق بين الغزو و السریة أن الغزو یقودها النبي — صلی الله عليه وسلم — والسریة یقودها أحد قادته .

وتحصيات ومعاهدات وسيلة من وسائل تحديدتها أو تطويرها . وكانت الكتابة وسيلة لانشاء حقوق جديدة ، أو انهاء التزامات قديمة قبل الدولة لجماعة أو افراد ، وكانت وسيلة كذلك لقطع أو انهاء مثل هذه العلاقات . وفي خلاصة مركزة كان وجود الدولة الجديدة ونموها المتزايد ومتطلبات هذا الوجود ومستلزمات هذا التطور سلماً وحرباً . كل أولئك يمثل **البواعث والدافع الحقيقة لانشاء الرسائل والكتب والعقود** وخصوصاً ما يسمى بالرسائل العامة أو الديوانية^(٤) .

فنجاح محمد — عليه السلام — في الهجرة دفع قريشاً إلى أن تكتب إلى عبد الله بن أبي سلول ومن معه من المنافقين يحرضونهم فيه على قتال محمد والا فان قريشاً ستزحف اليهم لقتالهم ولكن هذا الكتاب لم يأت بالثمرة المرجوة ، فاتجهت قريش إلى اليهود لنفس الغرض وكتبوا اليهم « انكم أهل الحلة والحسون ، وانكم لتقاتلن صاحبنا او لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء »^(٥) .

واقتضى حرص النبي — عليه السلام — على ترسیخ قواعد الدولة المركبة الجديدة إلى تنظيم العلاقات التي تربط بين الدولة وبين قبائل اليهود المختلفة فكتب عهداً مفصلاً بينه وبين اليهود ولعله أول كتاب تنظيمي كتبه النبي — عليه السلام — بعد وصوله إلى المدينة .

والحرب النفسية كانت باعثاً وراء كثير من الكتب وتدور حول فكرة أساسية هي التهديد والحديث عن القوة الذاتية والقدرة على تحقيق النصر واستئصال العدو ككتاب أبي سفيان إلى الرسول وقت الخندق .

(٤) هي الرسائل التي يكون اطرافها شخصيات عامة من خلفاء وأمراء وقادات على ان يكون موضوعها عاماً يتعلّق بأمور من أمور الدولة أو هيئة أو جماعة عامة كسياسة الحرب والسلام والتملك والتولية والغزل ورسم الخطط والتملك والاقطاع . . . الخ .

(٥) حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ٤٨ .

وهناك كتب العيون أو التجسس لكتاب العباس بن عبد المطلب إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – يخبره فيه باستعداد قريش للزحف إلى قتاله بعد فجيعتها في بدر . وكذلك كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرها فيه بأن النبي – عليه السلام – يسير لضربها وفتح مكة .

وهناك كتب الصلح التي كان وراءها الحرص على السلام والاستقرار ، ومن أشهرها صلح الحديبية .

ثم هناك كان الباعث الأكبر وهو حرص النبي – صلى الله عليه وسلم – على نشر الدعوة لا في بقية الجزيرة العربية فحسب بل خارج حدود الجزيرة ، فكانت كتبه للملوك والحكام وبعض القادة الدينيين مثل كسرى أبوريز والمذري بن ساوي عامله على البحرين والموقدس عظيم القبط في مصر وغيرهم .

وهناك كتب الاقطاع والهبات – إن صح هذا التعبير ... وهي كتب تسجل حقوقاً لبعض الجماعات أو القبائل قبل الدولة ، ككتاب النبي – عليه السلام – « للدارين » وفيه يقطعنهم قرية عينون وبيت حبرون والمطروم وبيت إبراهيم

وقد يرتب الكتاب حتى الشخص بعينه على سبيل الحصر ككتاب الأمان الذي منحه لسراقة بن مالك قبل الهجرة وهو يلاحقه هو وصاحبه أبو بكر لردهما إلى قريش . وفيه بعده بسواري كسرى بن هرمان .

وهناك الكتب التشريعية التي يفصل فيها الشارع – وهو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كثيراً من قواعد الدين وأركانه وخصوصاً الزكاة كما نرى في كتابه إلى ملوك حمير .

ولكن هناك من الرسائل ما كان وراءه « البعث الانساني البحث » بعيداً عن أمور الدولة ومصالح الجماعات والأفراد ، ومن أرقامها كتاب النبي — صلى الله عليه وسلم — إلى معاذ بن جبل — وهو واليه باليمن — يعزيه في ابن مات له ، وهي من أعمق الرسائل بالإيمان والتعاطف وصدق المشاركة الوجدانية بين الإنسان القائد وأحد ولاته الذين كان يحبهم ويغتر بهم^(٣) .

* * *

والخلاصة أن الكتب في عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأغلبها للرسول عليه السلام — كان وراءها أو الدافع الأول إليها هو « وجود الدولة » ونموها ، ونشوء عدد من العلاقات الجديدة بين الدولة الجديدة والمجتمعات الأخرى . وبين الدولة كشخصية اعتبارية والأفراد كشخصيات طبيعية^(٤) . كما كان هناك بواطن انسانية وراء بعض هذه الرسائل مما سنفصل فيه القول في الفصل الثالث الذي يعرض لأنواع الرسائل ووجهاتها وموضوعاتها ومضامينها .

(٢٦) والرسالة تعتبر رسالة خاصة أو شخصية على الرغم من أن طرفيها شخصيتان عامتان وذلك لأن محورها الموضوعي أمر خاص هو التعزية في وفاة

(٢٧) يفرد رجال القانون بين الشخص الطبيعي والشخص الاعتباري ويعرفون الأول بأنه من يصلح لاكتساب الحقوق وتحمل الواجبات ، وتشتت الشخصية لكل إنسان بوصفه هذا . ويبعد الشخص الطبيعي أو بعبارة أخرى تبدأ الشخصية بتواجد شرطين الولادة والحياة . أما الشخص المنوى أو الاعتباري فيعني « مجموعات من بني الإنسان اجتمعوا سوية لبقاء تحقيق غاية مينة بحيث تكون منهم وحدة لها وجود مالي أو سياسي مستقل عن وجود كل واحد منهم » ، والقانون يعتبر « الدولة » شخصية منوية عامة ، أما مفهومها ومؤسساتها فشخصيات منوية خاصة [انظر : د. عبد الحى حجازى : نظرية الحق ص ٩٤ - ٩٧ ، ص ١٥٤ - ١٥٧] .

الفصل الثالث

الموضوعات والمضايقات

(١) المعاهدات وكتب المصلح

بين المسلمين واليهود^(١)

كانت بيعتنا العقبة — وقد سبقهما لقاء عابر بين النبي — صلى الله عليه وسلم — والأنصار — تمهدًا طبيعياً لهجرة موفقة إلى المجتمع الجديد . ولا شك أن هاتين البيعتين ألقا لوناً من الطمأنينة في قلوب المسلمين المستضعفين في الأرض .

ولكن النبي — صلى الله عليه وسلم — كان يدرك ببصريته الوعية أن ما بين الأوس والخرج من ثور واحد ، وما سينشأ عن الوضع الجديد من نشوء جبهة موتورة هي جبهة المافقين على رأسها عبد الله بن أبي بن سلول ، وأن التجمعات اليهودية في المنطقة لن تستريح لهذه الأوضاع الجديدة التي يحتمل أن تضعف من كيانها السياسي والاجتماعي وتهز ثقة الأوس والخرج فيها . وهو يعلم أن اليهود كانوا يهددون به أهل

(١) ننبئ أبداً إلى أننا في حديثنا عن الكتب والمعاهد والرسائل في هذا الفصل سيكون تركيزنا الأساسي على ما تحويه من فكر ومبادئ وقيم دينية وسياسية واجتماعية في ضوء الظروف والأحوال التي نشأت فيها ، والبراعث التي أدت إلى إنشائهما ، وما ترتباً من حقوق وواجبات ، ودلالة كل أولئك على شخصية أطراافها وقدراتهم النفسية والعقلية والسياسية مرجحين الحديث عن الخصائص الفنية عن هذه الكتب والرسائل إلى الفصل التالي كما أعلنا من قبل .

المدينة ، ويوهمونهم أنه نبى من أنبيائهم وأنهم ستكون لهم السيادة على
المنطقة به :

قال ابن اسحق :

ان يهود كانوا معهم (أهل المدينة) في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب
وعلم ، وكانوا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا قد عزوهـم^(٣) ببلادهم ،
فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا لهم : ان نبـيا مبعوث الان ، قد اظل زمانه ،
نتبـعه نقتلكم معه قتل عاد وارم^(٤) .

وأنت هذه المقولـة التي ما فتـئ اليهـود يرددونـها بعـكس ما رجـاه اليهـود ،
فقد كانت هي الحافـز الأكـبر لاسـلام عـدد من الـأنصار فـأول لقاءـ بينـهم
وـبـينـ النـبـي ، فقد قال بعضـهم لبعـضـهـ عندما عـرضـ النـبـي نـفسـهـ عـلـيـهـمـ فـي
الـموـسـمـ « يا قـومـ اـنـهـ النـبـيـ الـذـيـ قـوـعدـكـمـ بـهـ يـهـودـ نـلاـ بـسـقـنـكمـ
لـيـهـ . . . فـاستـجاـبـواـ اللـهـ ولـرـسـوـلـهـ وـآمـنـواـ وـصـدـقـواـ »^(٤) .

فـمجـيءـ النـبـيـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ وـفـهـ الـأـنـصـارـ لـحـقـيقـتـهـ وـحـقـيقـةـ دـعـوـتـهـ « اـبـطـلـ
حـجـةـ الـيـهـودـ » أو « حـرـقـ الـورـقـةـ » الـتـيـ ظـلـواـ يـلوـحـونـ بـهـ لـالـأـنـصـارـ وـيـهـدـدـونـهـ
بـهـ عـشـرـاتـ مـنـ السـنـينـ .

وـثـمـةـ حـقـيقـهـ أـخـرىـ اـشـرـنـاـ إـلـيـهـ مـنـ قـبـلـ وـهـىـ أـنـ قـرـيـشـاـ لـمـ تـرـدـ لـلـمـجـتمـعـ
الـجـدـيدـ أـنـ يـسـتـقـرـ ، وـلـمـ حـمـدـ أـنـ يـكـوـنـ لـهـ الـمـقـامـ الـهـادـيـ فـيـ الـجـتـمـعـ الـجـدـيدـ ،
فـيـدـعـواـ يـكـتـبـ أـشـرـنـاـ إـلـىـ أـحـدـهـاـ تـمـزـجـ بـيـنـ الـوـعـدـ وـالـوـعـيـدـ يـؤـلـيـبـونـ فـيـهـ
الـأـنـصـارـ وـالـيـهـودـ عـلـىـ النـبـيـ وـصـحـبـهـ .

وـالـخـلـاصـةـ أـنـ النـبـيـ - عـلـيـهـ السـلـامـ - هـاجـرـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ وـاسـتـقـرـ بـهـ ،

ـ (٣) عـزـوهـمـ : غـلـبـوهـ .

ـ (٤) مـنـيـةـ اـبـنـ هـشـامـ ٢٩/٢٢ .

ـ (٤) اـمـتـاعـ الـأـسـمـاءـ ٣٢ .

وأصبح قوام المجتمع أو القوى الاجتماعية في المدينة تتمثل في الجماعات الآتية :

١ - المهاجرون من المسلمين وأغلبهم خرج من مكة خالى الوفاض ليس
معه صامت أو ناطق ، بعد أن تسللوا من مكة الى المدينة خفية خوفا من
بطش قريش .

٢ — الأوس والخزرج الذين عرفوا تاريخياً بالأنصار.

٣ - المشركون المذين من الأوس والخزرج و هؤلاء هم الذين بقوا على شركهم .

٤) — المنافقون وعلى رأسهم ابن سلول .

٥ - اليهود بقبائلهم المختلفة^(٥) وكانوا كما قلنا أهل ثراء يثمرون
أموالهم بآربا ويصنعون السلاح ويبيعونه للعرب الذين لا تنتهي حروبهم
وكانت أكثر الأرضي والبساتين بأيديهم^(٦) .

(٥) كان بنو قينقاع يقيمون داخل المدينة ، ويقيم بنو قريطة في ذلك ، وبنو النضير على مقرية منها ، ويهدون خير في شمالها [حياة محمد ٢٣٦] . والثابت تاريخياً أن اليهود في هذه المنطقة ليس لهم أي أصلة جنسية أو مكانية في هذه المنطقة فهم « يهود تربوا وليسموا عرباً تهودوا » - إن صح هذا التعبير . يقول ر. ف. بودلى في كتابه : الرسول . حياة محمد ١٤٨ « لقد كان اليهود منذ أزمان سحيقة عرضة دائماً للطرد من وطنهم (فلسطين) الذي استولوا عليه أصلاً بالقوس ، ولنذكر بعض الذين طردوهم ، فهناك سرجون الثاني سنة ٧٢٢ ق.م ، وبختنصر سنة ٥٨٦ ق.م ، ويوهيمباي سنة ٦٣ ق.م ، وطبيطس سنة ٧٠ ميلادية ، وطردهم هارديان طرداً نهائياً سنة ١٣٥ م . فكلما وقع اضطهاد لليهود رحل الفلسطينيون إلى ممالك أخرى ، وقد تطلعت كثير منهم في جزيرة العرب ، فنجد أن نهب طبيطس بيت التisser استولت ثلاثة قبائل قوية على المدينة أو يترتب كما كانت تسمى . تلك القبائل هي بنو قينقاع ، وبنو قريطة ، وبنو النضير ، وحولوها إلى معقل زراعي

(٦) د. احمد شلبي : الكتاب الأول من موسوعة التاريخ الاسلامي ٧٥

اما القوى الخارجية فتمثلت في القوى الآتية :

- ١ — مشركو الجزيرة العربية بعامة ومحركو قريش وخاصة وقد بدعوا يحرضون عليه قوى الأوس والخزرج واليهود .
- ٢ — قوى اندرس والروم وقد بدأ اسم النبي الجديد يتسرّب ويتردّد عبر القبائل التي كانت تدين لهاتين الدولتين بالبيعة .

* * *

كان النبي على وعي كامل بحقيقة هذا الوضع .. ومن ثم كانت المواجهة المطلحة المباشرة والفورية لأية قوة من هذه القوى لا تخطر له في بداية وجوده في المدينة لعدة أسباب هي :

السبب الأول : يتلخص في أن المسلمين كانوا يعيشون « دور النقاهة » الاجتماعية بعد التعذيب والمطاراتات والاضطهادات فمن الناحية الواقعية لم يكن وضعهم في الشهور الأولى يؤهلهم لمواجهة واسعة . فكانوا في حاجة إلى فقرة يلتقطون فيها أنفاسهم ، ويلمون فيها شعثهم ، ويستعيدون فيها قوتهم .

والسبب الثاني : أن القتال لم يكن قد شرع بعد^(٧) ، فلم يؤذن

(٧) كان قوله تعالى « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » الحج ٣٩ أول إيحاء بمشروعية القتال .. ويقال أن سبب نزولها كما يروي عن ابن عباس أنها نزلت في محمد وأصحابه حين أرجوا من مكة اذا قال أبو بكر أخرجوا نبيهم أنا الله وانا اليه راجعون ليهلكن . فأنزل الله عز وجل « اذن للذين » قال أبو بكر فعرفت أنه سيكون قتال . وزاد أَحْمَد : وهي أول آية نزلت في القتال [السبوطي : أسباب النزول ١٢٠ - القرطبي ٤٤٥٩/٥] . مختصر تفسير ابن كثير ٥٤٧/٢ . وتنبه هنا إلى أن سورة البقرة هي أول سور بالمدينة نزولا باتفاق إما سورة الحج فهي السابعة عشرة في الترتيب النزولي بالمدينة . والآية ٢١٦ في سورة البقرة (كتب عليكم القتال) أول آية نزلت بفرض القتال . وهذا الترتيب النزولي يقتضى في الظاهر أن تكون فرضية القتال قد نزلت قبل « الاذن به » . وهذا ما لا يقبله العقل ويناقض طبيعة الاسلام ومنهجه التشريعي في التدرج . لذلك نرجح أن آية الحج في الانفال والآيات التالية لها قد نزلت على النبي وهو في طريقه من مكة الى المدينة مهاجرا أو بعد استقراره بالمدينة وقبل نزول سورة البقرة وهي أول سورة مدنية كما ذكرنا آنفا .

للمسلمين باقتتال طيلة بقائهم في مكة^(٨) ، ثم نزلت آية الحج « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » غهي على اليقين لم تنزل في مكة ، إنما هي مدنية ، أو على الأقل نزلت والنبي في طريقه إلى المدينة . والمقطوع به أنها نزلت قبل أول لواء عقده الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، وكان ذلك على رأس سبعة أشهر من مقدمة بالمدينة^(٩) .

وعبارات المؤرخين تدل على أن « معاهدة الصدقة والموادعة » عقدت قبل الأذن بالقتل وكانت بالتأكيد قبل أول سرية بعث بها النبي أي في الأشهر الأولى من وصول النبي إلى المدينة^(١٠) .

وحتى على فرض نزول الأذن بالقتل قبلها فالقوم لم يظهر منهم ابتداء ما يوجب قتال النبي لهم . وبذلك يثبت الرسول بصورة عملية أن السلام هو الأصل في الإسلام .

أما السبب الثالث : فهو أن النبي — صلى الله عليه وسلم — أراد أن يثبت لهذه القوى جميعاً أن الحرب ليست هدفاً في ذاتها ، وأن هدفه الأول هو اقرار السلام والقيم الإنسانية « فكان أول ما انصرف إليه تفكيره تنظيم صفوف المسلمين وتوكيده وحدتهم للقضاء على كل شبهة في أن تثور

(٨) يقطع بذلك ما كان بعد بيعة العقبة الأولى (قبل الأخيرة) من قول العباس بن عبادة أحد الانصار المبايعين - والله الذي بعثك بالحق أن شئت لنميلن على أهل مني غداً بسيافنا فرفض الرسول صلى الله عليه وسلم - قائلاً لم تؤمر بذلك [ابن هشام ٤٤/٢] . هذا وقد رد ابن القيم بحجج دامغة على من ذهب - وهو مذهب شاذ - إلى أن آية الأذن بالقتل مكية وكذلك سورة الحج [انظر زاد المعد ٥٨/٢] .

(٩) كان قائداً السرية عمه حمزة بن عبد المطلب على ثلاثين راكباً نصفهم من المهاجرين والنصف الثاني من الانصار فبلغوا سيف البحر يعترضون عيراً لقيش قد جاءت من الشام تزيد مكة ، فيها أبو جهل في ثلاثة راكب ، ولكن لم يقع قتال لتوسط مجدى بن عمرو الجهنى بين الغريقين [انظر امتناع الأسماء ٥١] .

(١٠) يدل على ذلك عبارات المؤرخين مثل ما جاء في امتناع الأسماء ٠٠٠ لما قدم (النبي عليه السلام) المدينة مهاجراً وادعوه يهود كلها وكتب بينه وبينهم كتاباً ٠٠٠ الخ [ص ١٠٤] .

العبداوة القديمة بينهم ، ولتحقيق هذه الغاية دعا المسلمين ليتأخروا في
الله أخوين أخوين »^(١) .

وقد اطمأن محمد إلى وحدة المسلمين بهذه الواحاة وهي ولا ريب حكمة سياسية تدل على سلامة تقدير وبعد نظر متين مقدارهما حين نقف على ما كان من محاولة المذاقين الواقعية بين الأوس والخرج من المسلمين وبين المهاجرين والأنصار لافساد أمرهم . لكن العمل السياسي الجليل حقاً والذى يدل على أعظم الاقتدار ، وذلك ما وصل اليه من تحقيق وحدة يثرب والى وضع نظامها السياسى بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتحالف^(٢) .

مبادئ سياسية وقيم اجتماعية :

وقد تضمن الكتاب^(٣) كثيراً من المبادئ وانقىم والحقوق السياسية والاجتماعية تتلخص فيما يأتي :

١ - **ابقاء الحال على ما كانت عليه :** وقد استخدم الكتاب للتغيير عن هذا المبدأ عبارة « **المهاجرون من قريش على ربعتهم**^(٤) **يتناقلون**^(٥) **بينهم** **وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين** » ثم كرر العبارة ذاتها دون تغيير في كلماتها فذكر كل أطراف المعاهدة تفصيلاً مقتنيين بهذا المبدأ « **وبنوا عوف على ربعتهم ٠٠٠٠** » . **وبنوا الحارث على ربعتهم ٠٠٠** « **وبنوا ساعدة ٠٠٠** ، **وبنوا جشم ٠٠٠** ، **وبنوا النجار ٠٠٠** ، **وبنوا عمرو**

(١) حياة محمد ٢٣٦ .

(٢) السابق ٢٢٨ .

(٣) انظر نصه في سيرة ابن هشام ٢ / ٨٨ - ٩١ .

(٤) الربعة والرباعية (بفتح الراء) الشأن والحال يريد أنهم على أمرهم الذين كانوا عليهن من قبل من أداء العقول والديات وغيرها . والربعة أيضاً قسمة البلدة فتشتمل على منازلهم ومساكنهم .

(٥) المائل : الديات . والتعاقل هو اعطاء العاقل : ويقصد يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات واعطائهما .

ابن عوف . . . ، وبنو النبيت . . . ، وبنو الأوس . . . الخ . وابقاء الحال على ما كانت عليه – وقد عبر عنها الكتاب بقوله (على ريعتهم) فيما يتعلق بالمسكن والأرض والحقوق المكتسبة في الجاهلية والارتباطات والعلاقات الاجتماعية والسياسية وما في الذمم من حقوق وديون وديات . . . الخ – مسألة حيوية وضرورية لاستقرار المجتمع الجديد حتى لو كان في ذلك ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية وما سيحرمه الإسلام فيما بعد كالربا مثلاً ، وهذه المنهج يتفادى الهازئ الذى يمكن ان تصبب المجتمع بسبب اجراء او تنظيم فجائي . وهو منهج يتفق مع فلسفة الإسلام ومنهجه القيم في التدريج التشريعى^(١٦) .

كما نلاحظ أن الكتاب قد كرر العبارة بنصها تسعة مرات بعدد البطون التي شملتها المعاهدة وكان من الممكن ادراجها كلها تحت عبارة واحدة بلا تكرار . ولكنني أعتقد أن هذا التكرار في هذه المسألة يرجع إلى سببين :

السبب الأول : أهمية المسألة وحيويتها بالنسبة للمجتمع .

السبب الثاني : تأكيدها وترسيخها ومنع التأويل والخروج بالنص عن النصوص الذي قصد إليه .

٢ - **تقرير مبدأ الأخوة والتعاون بين المؤمنين :** وعلى الرغم من أن الأخوة الدينية بين المسلمين هي – بالدرجة العلية – صلة روحية تشتمل على وحدة العقيدة الدينية الا أن العلماء المجتهدين في عصور الإسلام الأولى قد اعتبروها المعيار الحاسم في تكوين الدولة الإسلامية ، والضابط الحتمي الذي يفصل بينها وبين غيرها من المجتمعات الإنسانية التي تدين

(١٦) انظر جابر قميحة : الدخل إلى القيم الإسلامية . الفصل الثاني من الكتاب (٤١ - ٩٥) وخصوصاً الصفحتان (٤٢ - ٥٦) .

بغير الاسلام . فالدولة الاسلامية في تكوينها دولة متحدة على أساس أن حكم الاسلام يسودها ، وأن ولاليته الشخصية تمتد الى الأمصار التي يعيش على أقاليمها البشر الذين تربط بينهم « الأخوة الدينية الاسلامية » . وهى لا شك تعد اول مثال للدولة المتحدة او الدولة « انفيدرالية » . . . ولما كانت « الأخوة الدينية الاسلامية هي المعيار الحاسم في تكوين الدولة الاسلامية فانه قد ترتب على ذلك — بحكم المنطق وبحكم الضرورة — ان تعتبر هذه الأخوة الدينية الضابط الذى يميز على مقتضاه بين الجماعة الاسلامية وغيرها من الجماعات الانسانية الأخرى التى لا تقوم فيها هذه الصلة الروحية^(١٦) .

والأخوة الاسلامية هنا ليست مجرد شعور وشعار ، ولكنها كانت رابطة وثيقة تولد عنها التزامات متعددة نص الكتاب عليها خلاصتها :

- (أ) تحمل دين المسلم والالتزامات المالية الأخرى .
- (ب) التعاون على البر والتقوى ، ومواجهة البغى والاثم والمدعوان .
- (ج) لا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وهم موالي بعضهم .
- (د) لا ينصر المؤمن قاتلا أو مجرما أو يؤويه .

وهذه الالتزامات هي روح القاعدة التي يقوم عليها البناء السياسي في الاسلام « وهي الأمة أو الجماعة وهي جماعة الأفراد الذين يرتبط بعضهم ببعض بروابط الدين ، وجميع أفراد هذه الأمة متساوون ، لا فرق بين كبير وصغير ، وإنما يكون في نوع العمل ، والله وحده رب هذه الجماعة وحاكمها ، وحكمه فيها مباشر بلا وساطة . ويحدد نظامها الداخلي ويؤمنه رضى أفرادها جميعا بأحكام الله وخضوعهم لها وطاعتهم لرأس الجماعة .. »^(١٨) .

(١٧) د. حامد سلطان : أحكام القانون الدولى في الشريعة الاسلامية ١٥٧ .

(١٨) شاخت وبوزورث : تراث الاسلام ٣٦ .

٣ - الحرية الدينية : وهي حرية العقيدة واقامة الشعائر دون الاضرار والاساءة للفير « لليهود دينهم ، ول المسلمين دينهم موالיהם وانفسهم » واستثنى المعايدة من هؤلاء « من ظلم وائم ، فانه لا يوتع^(١) الا نفسه واهل بيته » .

٤ - قيام التلاحم والتعاون بين المسلمين واليهود :

وقد عبرت المعايدة عن ذلك بعبارة « ان يهود بنى عوف امة مع المؤمنين ... » ولاأهمية هذا العنصر من عناصر هذا الكتاب يأتى التفصيل او ذكر الجماعات والبطون التي تتفق بهذه الحقيقة على نسق ما ذكر في اول الكتاب ... « وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف . وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف ... الخ » .

وقد نص النبي - عليه السلام - في هذا الكتاب على ما يقتضيه هذا التلاحم او ما يمكن أن نسميه بالتعبير الحديث : « **وحدة الأمة بكل عناصرها** » . وهي التزامات متبادلة وأهمها :

(أ) التزام اليهود بمساعدة المؤمنين في حالة الحرب ، وذلك بالمال والسلاح والمؤن ، اى - كما قال الكتاب - « **يتقرون مع المؤمنين ما داموا محاربين** » وقد كرر هذا النص لأهميته مرتين .

(ب) مذكرة المسلمين لليهود ومواساتهم بكل السبل والوسائل الممكنة « ... وأنه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا تناصر عليهم »^(٢) .

٥ - الجهاد واجب على الجميع لا تنفرد به طائفة دون طائفة .
بل على الكل أن يساهم في هذا الواجب مناوبة .

٦ - المؤمنون تتكافأ دمائهم يسعى بذمتهم أذاهم ، وهم يدعى من سواهم .

(١٩) يوتع : يهلك .

(٢٠) الأسوة هنا بمعنى المعاشرة والمعالجة ، وواساه : عالجه .

٧ — القاتل يقتل الا اذا رضى ولی الدم بالعقل (الديه) .

٨ — لا تزر وازرة وزر أخرى « لا يأثم أمرؤ بحليفة . . . » .

٩ — ضرورة رعاية حق الجار .

١٠ — الشعور بالأمان حق للجميع سواء أبقى الشخص بالمدينة أم خرج منها « الا من ظلم وأثم » .

١١ — « على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم » ، آى على كل مواطن أن يتحمل نصيبه الذي يتلزم به لصالح الجماعة .

١٢ — ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شتجار^(١) يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسول الله وان الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأتباه « .

وهذا النص الأخير يشير الى تلك الواقعية التي لا يوجد في النص ما يصدق عليها او ما يعتقد الأطراف او بعضهم أن ما ينص عليه الكتاب لا يتسع لهذه الواقعية . . . وزيادة على « الواقعية » التي تثير النزاع .. يشير الى « جهة الاختصاص » التي لها الحكم النهائي في هذه الحال وهو ما يشبه ما يسمى حديثا في القانون المحلي والقانون الدولي « بالاحالة » في الحكم او ما يسمى « بالتفويض » او « بالاحالة الداخلية » وبمقتضاهما يعين قانون الدولة من الشرائع المطبقة فيها شريعة يجب تطبيقها بمقتضى قاعدة من قواعد تنظيم التنازع الداخلي ما بين القوانين^(٢) .

وقد نص الرسول — صلى الله عليه وسلم — على جهة « الاحالة » او « التفويض » في حالة وقوع حدث أو خلاف « يخاف فساده » وجهة

(١) تنازع وخلاف .

(٢) اقرأ شرح نظرية الاحالة والفرق بين الاحالة والتفويض وال سور المختلفة لهما كتاب « تنازع القوانين » للدكتور جابر جاد عبد الرحمن ٦١٣ - ٦١٧ .
واقرأ في قواعد تفسير النصوص القانونية عند الخلاف بين الأطراف وتطبيقات ونماذج لها . د. سلطان : القانون الدولي العام في وقت السلام ٧٨ - ٨٢ .

الاختصاص هنا هي (الله ورسوله) أي القرآن والسنّة بأنواعها المختلفة^(٢٣) والأمر لا صعوبة فيه وخصوصاً أن صاحب التشريع - وهو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حى يسعى بالهدى بين الناس . وقد تبلورت هذه القاعدة في قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اط夷عوا الله وأط夷عوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بهما واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا »^(٤) .

* * *

وأهم السمات الموضوعية التي نسجلها لهذا الكتاب :

١ - **الشموليّة** : فهو لم يأخذ اتجاهها واحداً ينحصر في جانب واحد أو شريحة اجتماعية أو سياسية واحدة ، ولكنّه نص على كثير من القواعد والمبادئ السياسية والاجتماعية والأخلاقية والنفسية حتى أنه يصلح أن يمثل دستوراً متكاملاً للمجتمع الجديد في مناصبه المتعددة .

٢ - **عمومية النصوص** : فليس في الكتاب « فرعيات » أو مسائل خاصة ، أو وقائع محددة ، أو ذكر أشخاص طبيعيين ، إنما هي قواعد عامة شأنها شأن القواعد الدستورية في النظام الوضعي وهي القواعد التي يحويها الدستور « وهو الوثيقة الأساسية التي يبيّن فيها صاحب السيادة شكل الحكومة وينظم فيها السلطتين التنفيذية والتشريعية ويحدد اختصاصهما ، أو تلك الوثيقة التي تبيّن نظام الحكم في الدولة »^(٥) .

٣ - **مراجعة الواقع الاجتماعي والتاريخي لفئات المجتمع المدنى**
فقد كان التركيز مكثفاً على قيم الأخوة والتعاون والتكافل وتحمل الديانات

(٢٣) السنّة أنواع ثلاثة : سنّة قولية وهي ما كان حديثاً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسنة فعلية : أي ما أنتاء من أعمال مختلفة ، وسنة تقريرية أي ما رأه من فعل الغير وما سمعه من أقوالهم وسكت عنه .

(٢٤) النساء ٥٩

(٢٥) د. ثروت بدوى النظام الدستورى العربى ٢٩ ويطلق على الدستور كذلك اصطلاحى « النظام الدستورى والقانون الدستورى » .

... الخ فالمعروف تاريخياً أن النبي - صلى الله عليه وسلم - دخل المدينة وبين الأوس والخزرج دماء وثور من أيام بعاث^(٢٦) ، والسلطان اليهودي على سكان المدينة قائم وخصوصاً في المجال الاقتصادي احتكار واستغلالاً واستنزاها .

٤ - وهناك سمه شكلية ولكنها ذات هدف موضوعي يدل على بعد نظر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهي اختيار « القالب الكتابي » . ولم يلجأ إلى الاتفاق أو التعاوه الشفوي كما حدث في بيعت العقبة وذلك لتنوع الأطراف واتساع قاعدتهم فالمسألة ليست تعاوهًا بين الرسول وعشرات من الناس ولكن المسألة أصبحت تتعلق بشعب « ذي فئات » متعددة . ومشاركات مختلفة ، ولا يكفي التوجيه الشفوي أو العرف الجارى لسياسة الأمور وحكم الناس « فالقواعد المكتوبة تفضل العرف من نواح معينة : فهي تمتد بالوضوح وتحديد الأحكام بصورة تجبر الحكومات على احترامها وعدم الخروج عليها ، على خلاف انعرف الذي لا يمكن أن يرقى إلى نفس الدرجة من الوضوح والتحديد ، بل يشوبه الغموض وعدم التحديد في بعض الأحيان ، خصوصاً في فترة التكوين وبالتالي يسهل على الحكام التملص من أحكامه والزيغ عن قواعده . كما أن القواعد المكتوبة تكون أسهل مدخلاً إلى أذهان الأفراد من القواعد العرفية ، لأن تصوتها في متناول الجميع ، فيسهل على المحكومين معرفة حقوقهم ومدى السلطات التي يقررها الدستور للحكام عليهم . وأخيراً فإن القواعد الدستورية المكتوبة يسهل وضعها بسرعة على خلاف العرف الذي يستغرق زمناً طويلاً لنظام نشوئه واستقراره . وبذلك يستطيع الدستور المكتوب أن يتجاوب مع حاجات المجتمع إلى إنشاء قواعد جديدة أو إلى تعديل القواعد القائمة في سرعة ويسر كبيرين لا يتوافران في العرف »^(٢٧) .

(٢٦) بعاث كانت معركة عاتية بين الأوس والخزرج في الجاهلية وكان من عادة اليهود أن يذكروا رجال القبيلتين بما حدث في هذا اليوم حتى تثور في قلوبهم الاحتقان والبغضاء ويظلوا دائمًا على عداوة .

(٢٧) ثروت بدوى : النظام الدستوري ٨٧ .

فحرص النبي - صلى الله عليه وسلم - على استقرار الأمور ووضوح القواعد وتحديدتها وخصوصاً في طور نشوء الدولة كان هو الباعث على تقديم هذه الوثيقة الدستورية الرائعة ، ولا يتحقق ذلك الا اذا كانت مسجلة مكتوبة .

وأخيراً نشير الى ملاحظة شكلية قد لا تفت انتظار احد ، وهي تتلخص في امرتين :

الأول : أن أطراف الكتاب أو طرفيهم : هما : المسلمين وعلى رأسهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واليهود بالدينة وما حولها . ومع ذلك لم يكن الكتاب في هيئة « عقد » أو « اتفاقية » يقررها الطرفان ويتناقشان فيما يتفق عليه . ولكن جاء - كما قال ابن اسحق : كتاباً كتبه الرسول - عليه السلام - بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشتربط عليهم .

الثاني : ن هذا الكتاب ، أو الكتاب الدستوري كان بادرة من النبي - عليه السلام - - وبتعبير آخر لم يطلبه أحد . نهل يعد ذلك من قبيل « الدستور المنحة » الذي يصوغه الحاكم المستبد على هواه و « يمنحه » لأشعب ، متضلاً ممتناً عليهم به ؟

وفي مقام الرد على هذه الشبهة أو هاتين الشبهتين نبذة الحقائق الآتية :

١ - الواقع أنه ليس هناك أطراف متعددون أو « شخصيات معنوية » متعددة ، فالكل على اختلاف الوانهم واديانهم بدخول النبي - عليه السلام - المدينة أصبحوا « رعايا » في الدولة الجديدة . فهذا المسار من النبي - عليه السلام - احياء بوحدة الدولة ، أو بنشوء الدولة الواحدة . وقد نص الميثاق على ذلك في قوله « وان يهود بنى عوف امة مع المؤمنين : لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، موالיהם وأنفسهم » .

٢ — أن النبي — عليه السلام — سارع إلى تقديم هذه الوثيقة لاثبات « حسن النية » وحرصه على المودعة والسلام .

٣ — أن هذه الوثيقة لا ترغم أحداً على الدخول فيها والالتزام بها من اليهود بصفة خاصة ، ونص الوثيقة صريح في ذلك كما يظهر في قوله « **وأنه من تبعنا من يهود فان له الفسحة والأسوة** » .

٤ — ليس في الوثيقة أى نوع من القهر أو الاجبار أو العدوان على حق أحد ، ومن يقرأ الوثيقة وينعم فيها النظر يكتشف أن ما فيها من اثبات الحقوق لليهود — بصفة خاصة — أكثر بكثير مما نصت عليه من التزاماتهم نحو الدولة الجديدة والجماعات الأخرى .

بين النبي وكفار مكة صلح الحديبية^(٢٨)

بين كتاب الموادعة السابق بين النبي وال المسلمين من جانب واليهود من جانب آخر كان هناك ست سنوات مشحونة بالأحداث الجسمانية . وخصوصا فيما يتعلق بالإنجازات الحربية . فقد أرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - عدداً من السرايا إلى جهات متعددة من الجزيرة أحرزت عدة انتصارات وزادت من تثبيت هيبة الدولة الجديدة .

وخلال هذه المدة دارت عدة معارك بينه وبين قريش كان أهمها بدر وأحد والخندق . ولو نظرنا إلى حصيلة هذه المعارك مجتمعة

(٢٨) تذكر كتب السيرة والحديث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - في العام السادس من الهجرة رأى في النام أنه دخل البيت العرام ، وحلق رأسه ووقف بعرفة ، فاستنصر المسلمون والعرب إلى العمرة ، ولديهم معهم لا السيف في أغمدتها ، وساقوها منهم الهدي ، وكان ذلك في ذي القعده . فلما علمت قريش بذلك خرجت بخيلاً ورجلها ومن تبعها لمنع النبي ومن معه من دخول مكة ولو بقوه السلاح ، ونزل النبي ومن معه بالحديبية على بعد تسعه أميال من مكة ، وأغلق النبي ابتداء حرصه على تجنب العرب فاعلن أمام أصحابه « أما والله لا يسألونني اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله الا أعطيتهم اياماً » . وتعجلت بعثات قريش إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو لا يفتا يردد أنه ما جاء لقتال إنما جاء لزيارة بيت الله العرام وإن يقاتل إلا من قاتله . وأراد أن يؤكد هذا المعنى فبعث بعمان بن عثمان إلى قريش يشرح لهم المهدف الذي جاء المسلمين من أجله ، فلما غاب عثمان تردد أن قريشاً قد قتلقسه ، فلبس المسلمين السلاح ، وبایعهم النبي - صلى الله عليه وسلم - على الموت من أجل عثمان ، ولكن ظهر عثمان . ورأى سفراً قريش وعلى رأسيهم سهيل بن عمرو حامسة المسلمين والتلقفهم حول النبي - عليه السلام - فعادوا إلى قريش وأخبروا القوم بما رأوا ، فاشترى أهل الرأي منهم بالصلح على أن يرجع محمد وصحبه إلى المدينة هذا العام ويعودوا من قابل . ورجع سهيل ومعه حويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص . وطال الحديث بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

وتم الصلح في صورته المعروفة وكان وقعة على المسلمين هو شعورهم الحاد بالحزن والأسى لأنهم خرجوا ، ولا يشكرون في الفتح لرؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه حلق رأسه ، وأنه دخل البيت فأخذ مفتاح الكعبة ، وعرف مع المعرفين ، أي وقف بعرفة مع الواقعين [انظر: امتناع الأسماء ٢٧٧ - ٢٩٥]

لوجدنا كفة المسلمين أرجح ، حتى معركة أحد لم تحرز فيها قريش نصراً حاسماً ، كما كان فيهما من الدروس وال عبر التي أفادها المسلمين الشيء الكثير^(٢٩) .

و استطاع النبي - عليه السلام - أن يتخلص من رعوس يهودية أبدت عن نواخذة الشر والخيانة والغدر : من أشهرهم أبو عفك وكعب بن الأشرف وأسير بن زارم . وبعد أن نقض اليهود كتاب الموادعة وغدوا و خانوا و حاولوا اغتيال النبي - صلى الله عليه وسلم - وأعانوا عليه الكفار ، طرد بنى قينقاع من المدينة و لحقوا بأذرعات الشام . و طرد بنى النضير فنزل بعضهم بخир و نزل آخرون بالشام . وفي السنة الخامسة كان الانهاء التام لوجود بنى قريظة بعد قتل مقاتلتهم و غنم أمواهم و ذراريهم .

وأخذ التشريع يتكملاً تدريجياً ، والتكليف تزداد شيئاً فشيئاً ففرض

(٢٩) كان المسلمين قد انتصروا انتصاراً باهراً في أول مراحل المعركة التي قاربت أن تنتهي لصالحهم لو لا أن خالفاً « الرماء » عن أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - فتركوا موقعهم - وكان ثغرة من الثغرات - انحدر منها خالد بن الوليد بخيل المشركين ، فتغير وجه المعركة وقتل عدد من خيارات المسلمين على رأسهم حمزة . ولكن المشركين لم يفكروا في اقتحام المدينة لكتلة قتلامهم وجرحهم . أما الكسب الأكبر فدرسان خالدان :

الأول : ارتباط النصر بطااعة الله ورسوله في كل الأحوال .

والثاني : الشورى يجب أن تكون قاعدة أساسية من قواعد الحكم مهما ترتب على الأخذ بها من خسائر في الظاهر لأنها الأنفع للحكومة والمجتمع على المدى الطويل . وقد كان النبي - عليه السلام - يرى عدم الخروج للكفار وإثار التحصن بالمدينة فإذا جاء قاتلوكم ، ولكنه نزل على رأى الأغلبية التي كانت التفضل الخروج . ثم كانت المهزيمة في الرحلة الأخيرة من المعركة ، ولو أن النبي - عليه السلام - انفرد برأيه بعد هذه النتيجة ما لامه أحد . ولكنه وهو منصرف من أحد متختنا بالجراج مصاباً في أعز الناس عليه : « عمه حمزة ينـا » عليه قوله تعالى « ... فاغـ عـنـهـ وـاستـغـفـرـ لـهـ ، وـشاـورـهـ فـيـ الـأـمـرـ » آل عمران ١٥٩ وذلك حتى تكون للشورى قاعدة في السياسة والقراء ، والنشط والكره ، وفي حال النصر والمهزيمة . وكان الأخذ بالشورى هو مسلك النبي - عليه السلام - في سياسة الأمور والناس فيما لم ينزل فيه وحـى .

صيام رمضان وفرضت زكاة الفطر وأقام الحدود ، وشرع قاعدة الولاية العامة للشريعة الإسلامية وذلك بترجمة يهوديين محسنين زنيا^(٣) .

والخلاصة أنه خلال هذه المدة ازدادت كسوة المسلمين عسكرياً واجتماعياً ، وأصبح للنبي والدولة الإسلامية هيبة في المنطقة .. بعد تصفية الجيوش اليهودية التي كانت مصدر قلق وتهديد للدولة . ولم يبق منها إلا خير التي سيدق النبي - عليه السلام - حصولها في صفر في العام السابع من الهجرة .

ولكن بقي لقريش الشرك كيان في مكة وخارجها مصدره هيمنتها على الكعبة والبيت الحرام ، وتحريمها الحج وزيارة البيت على المسلمين . فكان فروج النبي إليها استجابة لرؤياه الصادقة وكان أن تم الصلح صالح الحديبية ونصه هو :

« باسمك اللهم . هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . واصططنا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يامن فيهن الناس ، ويكتف بعضهم عن بعض . على أنه من أتي محمداً من قريش بغير أذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً من مع محمد لم يردوه عليه . وإن بيننا عيبة مكتوفة^(١) ، وإنه لا إسلام^(٢) ، ولا إغلال^(٣) . وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه^(٤) . وأن محمدما يرجع عنا عامه هذا بأصحابه ، ويدخل علينا من قابل في أصحابه فيقيم بها ثلاثة ، لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر السيف في القرب^(٥) . »

(٣٠) ابن تيمية : السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية ١٢١ .

(٣١) عيبة الرجل : موضع سره ، والمراد الصدور . ومكتوفة أي منطوية على ما فيها ، ويقصد بالعيبة المكتوفة أن صدورنا معقودة على الوفاء لا يدخلها غل ولا غدر .

(٣٢) الاسلال : أخذ الشيء خفية دون وجه حق .

(٣٣) الأغلال : الخيانة والغدر .

(٣٤) سيرة ابن هشام ٢٣٠/٣ . هذا وقد دخلت خزاعة في عهد النبي وعنته ، ودخلت بكر في عقد قريش وعهدها .

(٣٥) امتناع الأسماع ٢٩٨ .

وكما هو واضح يكون انعهد قد تضمن الشروط الآتية :

- ١ - هدنة عشر سنوات .
- ٢ - حق قريش في أن يرد محمد من جاءه منها مسلما ، وليس محمد مثل هذا الحق .
- ٣ - حرية الدخول في حلف مع أي من الطرفين .
- ٤ - رجوع محمد هذا العام وعودته لزيارة البيت الحرام في العام التسالي .
- ٥ - الالتزام بحسن النوايا وتجنب الخيانة والغدر .

وكان وقع الصلح على نفوس عامة المسلمين مؤسفا فقد استبد بهم شعور هو مزيج من الحزن والأسى والغضب اذ أنهم كانوا حريصين على مواصلة السير الى مكة بعد هذا العناء والحرمان الطويلين .. العناء في السير من المدينة الى مكة والحرمان من زيارة بيت الله انحرام لعدة سنوات ست .. وهم يعلمون أن رؤيا الأنبياء صادقة وأنها نوع من الوحي ، وقد رأى النبي في المنام انه يدخل بيت الله الحرام ويؤدى مناسك الحج . فكيف بعودون دون تحقيق الرؤيا .

ولكن دعك من هذا لقد كان أشد الشروط وأقسها على نفوس المسلمين هو الشرط الثاني الذي بمقتضاه تسترد قريش من يأتى محمدا منها مسلما ولا ترد من يأتيها من المسلمين كافرا . انه شرط لا تكافئ فيه من وجهة نظرهم ، واعتبره المسلمون وعمر وخاصة « اعطاء الدنيا في الدين » اي تفريطها في الدين بلا مقابل او بمقابل هزيل . ومما زاد الكرب شدة وهو لا ما حدث قبيل كتابة الصلح^(٣) من هبوط أبي جندل بن سهيل بن عمرو

(٣) نرجح بين يدي هذه الواقعة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان قد انتهى مع سهيل بن عمرو من مرحلة « المحادثات التمهيدية » والاتفاق على الخطوط العريضة للصلح . ولم يبق الا كتابة المعايدة .

على المسلمين في الحديبية^(٣٧) ففرح المسلمون به ، فقام إليه أبوه وضرب وجهه بفصن شوك وأخذ بتلبيبه^(٣٨) وصاح أبو جندل بأعلى صوته : « يا عشر المسلمين !! أورد إلى المشركين يفتذونى في دينى » ؟ فزاد المسلمين ذلك شرا إلى ما بهم ، وجعلوا يبكون لكلام أبي جندل . . . وقال سهيل بن عمرو للنبي — صلى الله عليه وسلم — « هذا أول ما قاضيتك عليه ، رده « فقال النبي « أنا لم نقض الكتاب بعد » ف قال سهيل « والله لا أكتتب على شيء حتى ترده إلى » فرده إليه^(٣٩) .

وكان رد النبي — صلى الله عليه وسلم — على منطق المعترضين على الصلح وخصوصا عمر « أنى رسول الله ، ولن أغصبه ، ولن يضيعنى »^(٤٠) .

فما فعله النبي ليس اثما ، ولا ينطوى على معصية ، وهو لا يعصي رباه لأنه رسوله ومختاره ، وهو يثق في نصر الله ثقة بلا حسود . . . وكان النبي في هذا الصلح أبعد نظرا واثق بفكرة من المسلمين جميعا ومن المشركين جميعا . بل إن هذا الصلح — وخصوصا الشرط الثاني الذي ظنوا أنه في صالحهم — يدل على أنهم لا يرون أبعد من أنوفهم . فقد ثبتت هذا الشرط خلال أسبوعين قليلة أنه في صالح المسلمين لا عليهم ، فاللتاريخ يروى أن قريشا حبسوا من عندها من المسلمين ومنعوهم الخروج من مكة ، ولكن واحدا منهم هو « أبو بصير » تمكنا من الفرار إلى المدينة وقصد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — طالبا موافقة النبي على إقامته في المدينة ، ولكن النبي — عليه السلام — قال « يا أبا بصير أنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصح لنا في ديننا الفدر وإن الله جاعل لك وإن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا » ورده النبي مع رسوبه قريشا

(٣٧) وكان قد أسلم في مكة فسجنه أبوه وقيده بالحديد ، ولكنه استطاع أن يفلت من قيوده ويقصد المسلمين في الحديبية .

(٣٨) أي جمع إليه ثوبه الذي هو لا يسبه دون عند صدره ونحره ، ثم تبشه وجره إليه .

(٣٩) المقريزي : انتاج الأسماء ٢٩٤ .

(٤٠) السابق ٢٩٥ .

اللذين جاءوا في طلبه ، ولكنه تمكّن من قتل أحدهما ، وخرج حتى أتى « العيس » ونزل منه ناحية على ساحل البحر الأحمر على طريق غير قريش إلى الشام وبلغ المسلمين الذين حبسوا بمكة خبره فقصدوه منهم قرابة سبعين آخرين يقطعون على قريش طريقها ويصادرون بضائعها ويقتلون رجالها حتى كتب قريش إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تسلّل بأرحامها لا أوهام فلا حاجة لهم به ، فأوهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقدموا عليه بالدمينة^(٤) .

وزاد عدد المسلمين المطلقين من مكة إلى المدينة . وأكثر من هذا أثبت النبي — عليه السلام — لقريش وللعرب أنه صادق الوعيد والمعهد والنية في حرصه على السلام ورعاية العهود ، والتذرع عن روح العدوان وقد أثبت ذلك ابتداء من خروجه إلى مكة في ذي القعدة سنة ٦ هجرية ودعا إلى الحج « فلم يقصره في تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته .. بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسرور إليه ، فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة في وجه قريش ، ومصلحة واحدة في وجه مصلحتها . وفضل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الأخرى ، ثم أفسد على قريش ما تعمدوه من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناؤة محمد والرسالة الإسلامية ، فليس محمد وأصحابه أناسا معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاسيرها ، ولكنهم أذن عرب ينتصر بهم العرب ، ولا يذلون بانتصارهم ، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم . فان خالفوا قريشا في شيء ، فذلك شأن قريش وحدهم أو شأن المنتفعين من قريش بالسيطرة على مكة ، وليس هو بشأن القبائل أجمعين ..

ثم أفسد على قريش من جهة أخرى ما تعمدوه من اغضاب العرب على الإسلام ، بما ادعوا من قطعه للأرزاق وتهديده للأسواق التي

^(٤) ابن هشام ٣/٢٣٥ .

يعمرها الحاج ، ويستفيد منها الغادون الى مكة والرائحون منها .. فهذا هو
ذا محمد نفسه يأخذ معه المسلمين الى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته
من غير المسلمين قصاد البيت الحرام . عاذًا حال بينهم وبين ما يقصدون ائمه .
قتلك جنایته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه .. ولا وزر فيما أصاب
الأسواق على المسلمين »^(٤٢) .

ولو نظرنا الى الشرط اثنانى في ذاته — وهو الذى اعتبرته قريش
بادىء ذى بدء كسباً كبيراً لها ، واعتبره أغلب المسلمين من قبل اعطاء الدنيا
في الدين — لوجدناه « فارغ المضمون » بالنسبة لقريش ، كما انه لا ينطوى
— في ذاته — على اى اضرار بال المسلمين او عقيدة الاسلام حتى لو لم تقع
واقعة « أبي بصير » وآخوانه « ولو أن النبي شرط على قريش أن ترد
عليه من يقصدها من رجاله لنقض بذلك دعوى الهدایة الاسلامية ، ونقض
الوصف الذى يصف به المسلمين ، فان المسلم الذى يترك النبي باختياره
ليلحق قريشاً ليس بمسلم ، ولكنه مشرك يشبه قريشاً في دينها ، وهى أولى
به من نبي الاسلام .

أما المسلم الذى يرد الى المشركين مكرهاً فانما الصلة بينه وبين نبى
الاسلام ، وهو شىء لا سلطان عليه للمشركين ، ولا تقطع اصلة فيه
بالبعد والقرب . فان كان الرجل ضعيف الدين ففتنه عن دينه فلا خير
فيه ، وان كان وثيق الدين فبقى على دينه فلا خسارة على المسلمين »^(٤٣) .

واثمة أدلة أخرى تدل على عبقرية النبى — صلى الله عليه وسلم — في
هذا الصلح ، وتمثل فيما يأتي :

١ — اعتراف قريش « رسمياً » بمحمد قائداً وزعيمًا ، وبال المسلمين
جماعة لها وجود وثقل وكيان ... لم يعد محمد « عملياً » و « رسمياً »

(٤٢) العقاد : عبقرية محمد ٥٧ .

(٤٣) العقاد : عبقرية محمد ٦٠ .

ذلك المطارد المطلوب ، ولم يعد المسلمين هم الضعفاء أو المستضعفون ، ولكنهم بقيادة نرسول أصبحوا كيانا سياسيا « معترفا به » .

٢ - الكسب الذى جناه المسلمون بفتح الباب على مصراعيه لمن أراد من العرب الدخول في أمر محمد باشتراط أن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . ومعنى ذلك كف أذى قريش عن الذين يتبعون محمدا . وكان رد الفعل حيال هذه المادة مباشرة فتواثبت خزاعة فقالوا نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر ، وقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم . وكانت هذه المادة بمثابة حجر الزاوية في خطبة النبي انعامه لكتاب شبه جزيرة العرب الى جانبه في السنوات القليلة التي تلت الحديبية^(٤) .

وهذا النص - حق الدخول في حلف أحد الطرفين - وان كان نصا متوازيا متكائنا كان كسبا سياسيا اذ أضفى حماية « رسمية » مكتوبة على من يدخل في حلف محمد ، وهى حماية كانوا في حاجة اليها لتفادي غدر قريش ، أما من يدخل في عهد قريش فلم يكونوا في حاجة الى مثل هذه « الحماية » لأن النبي وال المسلمين لا يغدرون ولا يريقون دما الا بالحق ، نلهم من مبادئ الاسلام وسماحته وانسانيته خير حماية دون نص^(٥) .

٣ - لم تفدى قريش من الهذنة شيئا ، بينما أفاد النبي والمسلمون الكثير : اذ عاد النبي والمسلمون الى مكة معتمرين في العام التالي^(٦) . وقد

(٤) د. عون الشريف قاسم : نشأة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ٦٨ .

(٥) وكان هذا النص هو مفتاح الخير على المسلمين فقد كان نقضه هو السبب المباشر لفتح مكة ، اذ لم يمض عامان حتى أبانت عن طبيعتها في العذر فحرضت بكرأ على خزاعة واعانتها بالسلاح والرجال فأعملوا سيفونهم في للخزاعيين وبعثت خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي يستصرخ النبي وال المسلمين فاستجاب النبي - عليه السلام - وكان ما كان من فتح مكة .

(٦) ابن هشام ٣/٢٧٣ .

دامت الهدنة عامين فحسب ، ولكنهما كانا كافيين لحمد — صلى الله عليه وسلم — لتبنيت مركزه ، ولد نفسه بالقوة الالزمة لكسر شوكة قريش ، وتقويض سلطانها . وفي هذه الأثناء دك معاقل اليهود في خيبر وفندك في العام السابع للهجرة ، وبيعث بحمة إلى مؤته في العام الثامن من الهجرة . وفي هذا العام الثامن كان المسلمين موقنين من النصر ، فقد تضحمت أعدادهم وتکاثرت ، وانضم إلى صفوفهم جماعة من كبار المكيين كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وكان جيشهم الذي قدر عدده بعشرة آلاف^(٤٧) دليلاً واضحاً على تقوتهم الحربية والسياسية في شبه جزيرة العرب^(٤٨) .

هذا هو صلح الحديبية ، كان دليلاً على عبقرية النبي السياسية وبعد نظره كما بینا فلا عجب أن يسميه القرآن « فتحا » فينزل الله على نبيه — عليه السلام — بعد عقد الصلح وانصرافه من الحديبية « انا فتحنا لك فتحا مبينا »^(٤٩) .

* * *

وكان كتاب المودعة الذي بين الرسول والمسلمين واليهود في السنة الأولى للهجرة ومعاهدة الصلح .. صلح الحديبية في السنة السادسة أهم الكتب السياسية في تاريخ الدولة الناشئة ، لأن الأول يمثل « القانون الدستوري » الذي ينظم العلاقات بين السلطة الحاكمة ، ومؤسسات الشعب المختلفة ، وبين هذه الفئات نفسها بعضها ببعضًا وينظم الحقوق والواجبات في شتى المجالات .

أما الثاني فكان فتحا حقيقيا كما ذكر القرآن الكريم ، وكان دليلاً عملياً رائعاً على عبقرية النبي السياسية وبعد نظره . وجاءت الواقع والأحداث القريب منها والبعيد تثبت هذه الحقيقة .

(٤٧) قدره بعض المؤرخين بأضعاف هذا العدد .

(٤٨) عنون الشريف : السابق ٧٠ .

(٤٩) سورة الفتح الآية ١ . وأنظر السيوطي : أسباب النزول ١٥٤ .

ويلحق بهذا اللون من الكتب « كتب الصلح والمعاهدات » ما يسمى « كتب الأمان » وهى الكتب التى يمنحها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لفرد أو جماعة أو قبيلة أو بلد — وفيها ينص على « أمانهم » بمعنى أنه لا يحق لأحد أن يتعرض لهم أو لأموالهم بعذوان . فهو نوع من النص على حماية السلطة لصاحب العهد . وكتب الأمان هذه نوعان هما :

١ - كتب الأمان الشامل أو العام : مثل كتابه لأهل أذرح وجرباء الذى اكتفى فيه بالنص على أنهم « آمنون بأمان الله وأمان محمد »^(٥٠) .

٢ - كتب الأمان المفصلة : وفيها ينص على ما يشمله الأمان ، كمهده — صلى الله عليه وسلم — لأهل أيلة^(٥١) فقد أمنهم على سفنهم وسيارتهم في البر والبحر .. ولا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر «^(٥٢) .

ولمثل هذه الكتب فى إنغالب داعية وسبب كطلب أهلها الأمان ، أو دفعهم الجزية ، أو اعلانهم المسلم ، أو ما يدور فى هذا الفلك ، وقد ذكر فيها مقدار ما يلتزمون به ، أو ما يجب عليهم من عمل وخلافه .

٥٠) امتاع الأسماع ٤٦٨ .

٥١) مدينة على خليج العقبة شمالاً .

٥٢) امتاع الأسماع ٤٦٨ .

(٢) كتب الدعوة الى الاسلام

ومن اهم الكتب في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - الكتب التي بعث بها الى شخصيات ذكرت في التاريخ على سبيل الحصر ، وفيها يدعوهם الى الاسلام . ويلفت نظرنا الى هذه الكتب امران :

الأول : أن أغلبها بعث به اني ملوك وأمراء وحكام وذوى مناصب عليا في بلادهم .

والثانى : أن أغلب هذه الكتب كان في العام السادس للهجرة او ما بعدها .

وتبرير الأمر الأول لا يحتاج الى عناء ، فنانس على دين ملوكهم كما يقول المثل . وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يطبع في اسلام الرعايا باسم حكامهم ، وفي ذلك توفير كبير للجهود ، وكسب كبير ل الاسلام .

اما اختيار العام السادس لارسال هذه الكتب فلأنه كان البداية الحقيقة للانفتاح الاسلامي في السياسة الخارجية - ان صح هذا التعبير - ابتداء بقريش في الحديبية ، لذا ارجح أن تكون هذه الكتب قد بدأء في ارسالها بعيد الحديبية وذلك بعد أن أمن النبي - صلى الله عليه وسلم - قريشا بالاتفاق على هدنة طويلة ، او ما يمكن أن نسميه بتأمين الجبهة الداخلية ، حتى اذا ما غضب واحد من هؤلاء الملوك وأرسل بجيش لحاربة الرسول لم تكن قريش يدا معه على محمد - عليه السلام - .

* * *

الرسـل الـمـعـوـثـون :

- وكان رسـل النـبـى الـذـين يـحـمـلـون كـتـبـه هـم :
- ١ — حـاطـبـ بنـ أـبـى بـلـقـعـةـ الـلـخـمـى : إـلـىـ القـوقـسـ بـمـصـرـ .
 - ٢ — شـجـاعـ بنـ وـهـبـ الـأـسـدـى : إـلـىـ الـحـارـثـ بنـ أـبـى شـمـرـ الـفـسـانـىـ . مـلـكـ تـخـومـ الشـامـ .
 - ٣ — دـحـيـةـ بنـ خـلـيـفـةـ الـكـلـبـىـ : إـلـىـ قـيـصـرـ مـلـكـ الرـوـمـ .
 - ٤ — سـلـيـطـ بنـ عـمـرـ الـعـامـرـىـ : إـلـىـ هـوـذـةـ بنـ عـلـىـ الـحنـفـىـ وـإـلـىـ ثـمـامـةـ بنـ أـشـالـ . رـئـيـسـ الـيـمـامـةـ .
 - ٥ — عـبـدـ اللهـ بنـ حـذـافـةـ السـهـمـىـ إـلـىـ كـسـرـىـ مـلـكـ غـارـسـ .
 - ٦ — عـمـرـ بنـ أـمـيـةـ الـضـمـرـىـ : إـلـىـ النـجـاشـىـ مـلـكـ الـحـبـشـةـ .
 - ٧ — العـلـاءـ بنـ الـحـضـرـمـىـ إـلـىـ الـمـذـرـ بنـ سـاـوـىـ مـلـكـ الـبـحـرـيـنـ (٣) .

مضـامـينـ الـكـتـبـ :

وتشـتـرـكـ كـلـ هـذـهـ الـكـتـبـ — كـمـاـ ذـكـرـتـ — فـيـ مـضـامـونـ مـحـورـىـ وـهـوـ الدـعـوـةـ إـلـىـ الـاسـلـامـ الـقـىـ جـاءـتـ فـيـ أـسـالـيـبـ مـتـعـدـدـةـ (٤) ، وـلـمـ تـأـخـذـ صـورـةـ وـاحـدـةـ ، وـلـكـنـ بـجـانـبـ هـذـهـ الـفـكـرـةـ الـمـحـورـيـةـ كـانـ هـنـاكـ مـضـامـينـ أـخـرىـ فـرـعـيـةـ مـشـتـرـكـةـ بـيـنـ هـذـهـ الـكـتـبـ جـمـيـعـاـ أـوـ اـغـلـبـهاـ وـانـ اـرـتـبـطـتـ اـرـتـبـاطـاـ وـثـيقـاـ بـمـضـامـونـ الرـئـيـسـىـ . وـمـنـ هـذـهـ الـمـضـامـينـ الـمـشـتـرـكـةـ :

- ١ — فـيـ الـاسـلـامـ السـلـامـةـ ، وـمـنـ اـمـتـنـعـ عنـ الـاسـلـامـ أـنـ .

(٣) انـظـرـ اـمـتـاعـ الـأـسـمـاعـ ٣٠٧ .

(٤) لـمـ يـسـتـخـدـمـ الرـسـنـوـلـ — صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ — اـسـلـوـبـاـ وـاحـدـاـ فـيـ هـذـهـ الـكـتـبـ ، وـكـانـ مـنـ الـمـكـنـ أـنـ يـجـعـلـهـ كـتـابـاـ وـاحـدـاـ يـرـسـلـ مـنـهـ نـسـخـةـ لـكـلـ وـاحـدـ مـنـ هـؤـلـاءـ وـلـكـنـ النـبـىـ — عـلـيـهـ السـلـامـ — لـمـ يـفـلـ ذـلـكـ لـنـيـضـ اـسـلـوـبـهـ وـفـصـاحـتـهـ ، وـمـرـاعـةـ مـقـتضـىـ الـحـالـ وـالـظـرـوفـ وـالـطـبـائـعـ وـالـمـشـارـبـ الـمـخـلـقـةـ بـيـنـ هـؤـلـاءـ جـمـيـعـاـ .

٢ - محمد هو رسول الله المبعوث للناس كافة .

٣ - المتنع عن الاسلام لا يحمل اثم بقائه على الكفر فحسب ولكن اثم رعياه ، لأنهم يتبعونه ضلاله أو هداية والناس على دين ملوكهم .

٤ - الاستشهاد بآية أو آيات من القرآن مناسبة للمقام ومتعلقة بطبيعة المرسل إليه^(٥٥) .

فكل هذه الكتب كانت الفكرة الأساسية التي تحملها هي الدعوة إلى الاسلام ، ثم هي تمزج في تضاعيفها بين الترغيب في الدعوة الجديدة والترهيب الجمل من نتيجة المخالفة برفض اعتناق الاسلام وهو الدين الخاتم الذي جاء به رسول بعث به الله للناس كافة وهو محمد بن عبد الله عليه السلام .

* * *

ولكن على الرغم من هذه المشابه فإن هناك ملامح فارقة لا يخطئها النظر بين هذه الكتب .

١ - فبعضها يأتي موجزاً في سطرين ، ويدعو إلى الاسلام مباشرة دون تفصيل . كتابه - عليه السلام - إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ، ونصله :

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْحَارثِ بْنِ أَبِي شَمْرٍ. سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَآمِنَ بِأَنَّهُ وَصَدَقَ وَأَنِّي أَدْعُوكُ إِلَى أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. يَبْقَى لَكَ مَلْكُكَ»^(٥٦).

(٥٥) وهذا أمر طبيعي فالقرآن هو المصدر الأول للتشریع ، وهو السجل الخالد للأقيم الاسلامية ، وقد تكون الآيات المستخدمة عرضاً لوقف القرآن من الرسل كعيسى وموسى .

(٥٦) جمهرة رسائل العرب ٤٤ . ويقال انه لما قرأ الكتاب رماه وأرغي وأزبد ، وهم بالسير في جيش الى الرسول - ضلوا الله عليه وسلم - ولكن قيصر ثناه عن عزمه .

وبعضاها يأتي أكثر تفصيلاً كاغلب هذه الكتب ولكنها جمیعاً تلتقي في صفة الإيجاز . وفي كتاب واحد فقط هو كتابه للمذر بن ساوي يذكر بعض ملامح المسلم ، فالمسلم – على حد قوله عليه السلام – هو من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا »^(٧) .

٢ - وانفرد كتابه إلى النجاشي عن الكتب جمیعاً بأمرین هما : ذكر بعض أسماء الله الحسنى « الملك القدس السلام المؤمن المهيمن » ، وشرح طبيعة سيدنا المسيح عيسى بن مریم – عليه السلام – فهو « روح الله ، وكلمة القساها إلى مریم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت عيسى ، حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه »^(٨) .

والعجب أن يذكر النبي – عليه السلام – ذلك في كتابه إلى النجاشي ، وربما كان أولى به رجل كالمقوقس « عظيم القبط » حتى يبعث فيه حسه الديني . . . فهو زعيم ديني قبل كل شيء ، ولكن معرفة الواقع التاريخي آنذاك تجعلنا نؤمن بأن النبي – صلى الله عليه وسلم – في اختصاصه كتابه للنجاشي بذكر المسيح وكيفية ولادته ، فقبل هذا بعام هاجر جعفر بن أبي طالب وعشرات من المسلمين إلى الحبشة ، وأرسلت قريش في أثرهم ونداً منهم عمرو بن العاص لاستعادته هؤلاء « الفارين » الخارجين وارجاعهم إلى مكة ، أو على الأقل محاولة تأليب النجاشي عليهم فلم يجدوا سبيلاً يتسللون منه إلى قلب النجاشي إلا طبيعة المسيح ، ورأى المسلمين « شيء » فيه . وشرح المسلمين وجهة نظر الإسلام في خلق المسيح ومكانته عند المسلمين فخابت مؤامرة الكفار ، وعامل النجاشي المسلمين معاملة طيبة .

وقد أراد النبي – عليه السلام – باعادة ذكر هذه المسألة في كتابه تأييده لما ذكره المسلمين ، وتأكيداً له وكتيباً لشاعر هذا الملك العظيم ، وقد تحقق ما أراد فأرسل إليه النجاشي كتاباً يعلن فيه أنه أسلم

^(٧) البلاذري : فتوح البلدان ٩١ .

^(٨) انظر أسد العابدة ١١٩/١ وجمهورة رسائل العرب ٤٠ . وسنرى أنه في أحد كتبه لخبير يتحدث بشيء من التفصيل عن موسى عليه السلام .

على يد جعفر بن أبي طالب ، ويعبّر عن إيمانه بما ذكره الرسول في طبيعة المسيح عليه السلام .

٣ - كما انفرد كتاب النبي إلى النجاشي بذكر « مطلب خاص » هو أن يحسن النجاشي إلى جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين إلى الحبشة .

ويراعى النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يكون المثل للتاريخي الديني مناسباً عقدياً ودينياً لمن يرسل إليه كتاب الدعوة ، ففي كتابه إلى خير ما يظهر لنا صحة هذه المقوله ، يقول عليه السلام في كتابه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه المصدق بما جاء به موسى ، إلا أن الله قد قال لكم : يا معاشر أهل التوارثة - وإنكم تجدون ذلك في كتابكم : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحمة بينهم) ، واني أشدهم بالله ، وأنشدكم بما أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذى أطعهم من كان قبلكم من أسباطكم آلن والسلوى ، وأنشدكم بالذى أبيب البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله الا اخبرتمونا هل تجدون فيما أنزل عليكم أن تؤمnia بمحمد ؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم ، (قد تبين الرشد من الفى) فادعوكم الى الله والى نبيه »^(١) .

٤ - وأكد النبي - عليه السلام - في بعض هذه الكتب مسؤولية الحكام عن ضلال الرعية ، وكان هذا التأكيد صريحاً قارعاً شديداً للهجة في كتب ثلاثة وهي كتابه إلى كسرى الفرس وقيصر الروم والمقويس ... الأولان هم أوسع حكام الأرض نفوذاً . والثالث هو صاحب الميمنة الدينية على أقباط مصر ففي كتابه - عليه السلام - إلى قيصر الروم « فان توليت فانما عليك اثم الأربيسين »^(٢) .

(٥٩) التوبيري : نهاية الأربع ٣٧٢/١٦

(٦٠) جاء في لسان العرب : الأربيس (كمير وسكيت) هو الأكابر : أي الفلاح . وكتب معاوية إلى صاحب الروم حين علم أنه يريد أن يقصد الشام أيام صفين مستغلًا ما بينه وبين على من خلاف « والأذننك أربيساً من الأرارسة ترعي الدوابيل ، .. والآربيس (كسكيت) هو الأمير والرئيس . فعلى الأول يكون المعنى فأن عليك اثتك واثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون لأمرك . وعلى الثاني فأن اثم الأكابر عليك لأنك إن توليت عن إجابة الدعوة لم يجب إليها كبراء دولتك تتبعاً لك ، ولو أنهم أسلموا لم يلدوا قومهم إلى الإسلام لما فيه من الأمر المطاع والكلمة النافدة وقوه التأثير . [أنظر جملة رسائل العرب هامش ٣٨] .

وفي كتابه الى كسرى الفرس « . . . فان ابیت فعاليك اثم
المجوس »^(١) .

وفي كتابه الى المقوقيس : « فان توليت فانما عليك اثم القبط »^(٢) .

ولكنها فروق لا تبتعد ، بل هي ترتبط بالفكرة الأساسية الرئيسية
وهي الدعوة الى الاسلام .

وقد كان تأثير هذه الكتب مختلفا كما أشرنا من قبل : فاما
المقوقيس ، فإنه قبل كتاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واهدى
إليه أربع جوار ، مذهب مارية . وأما قيصر (وأسمه هرقل) ، فإنه قبل
أيضا الكتاب واعترف بالنبوة ، ثم خاف من قومه فأمسك . وأما الحارث
ابن أبي شمو الغساني ، فإنه لما أتاه الكتاب قال : أتنا سائر اليه « يعني
محاربا » . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد بلغه ذلك عنه :
باد ملکه .

واما النجاشي ، فإنه آمن برسول الله واتبعه ، وأسلم على يد جعفر
ابن أبي طالب رضي الله عنه ، وأرسل ابنه في ستين من الحبشة فغرقوا
في البحر . وبعث اليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يزوجه بأم
حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب — وكانت مهاجرة بالحبشة مع زوجها
عبد الله بن جحش فتنصر هناك — فزوجه لها ، وقام بصداقتها : أربعون
دينار من عنده .

واما كسرى أبوريز بن هرمز ، فإنه مزق الكتاب ، فقال رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — : مزق الله ملکه . فسلط عليه ابنه شيريويه فقتلته .

(١) المجوس هم عبادة النار . والمراد بجوسى :

(٢) القبط هم سكان مصر . ولكنها تطلق الآن على النصارى فقط . والمراد قبطي .

وأما هودة بن على ، فبعث وفداً بأن يجعل له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الأمر بعده حتى يسلم ، والا قصده وحاربه . فقال النبي — صلى الله عليه وسلم — : اللهم اكفيه ! فمات بعد قليل . وأما المذر ابن ساوي ، فإنه أسلم وأسلم أهل البحرين «^(٦٢) .

ولكننا نستطيع أن نقول أن التأثير كان ايجابياً إلى حد بعيد والذين لم يسلمو في حياة النبي — أفراداً كانوا أو قبائل — اسلموا في حياة خلفائه .

(٦٢) انظر اعتقاد الأسماع ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٣) الرسائل والكتب التشريعية

وهي تلك التي توجه الى الأفراد أو القبائل وفيها عرض لأحكام الدين المختلفة ، وما يتطلبه الشرع في مجال العبادات والمعاملات وغيرها . وكانت هذه الكتب تفصل كثيرا من قواعد الدين ، ولكنها خصت ائزكاة بالنصيب الأولي وذلك لأنها الركن الاسلامي الوحيد ذي التشاعيب التي تحتاج الى تفصيل وحساب . مثل كتابه الى معاذ بن جبل عامله على اليمن . وهو من اواخر كتبه - عليه السلام - وفيه يتحدث عن خراج الأرض والجزية واليهود . وهو من أوجز الكتب التشريعية ، وفيه يبين أن زكاة الأرض عشر ما تخرج ان سقيت بالمطر ، ونصف العشر اذا سقيت بمجهود وعمل : « وأن على كل حالم دينارا أو عدل ذلك من المعاشر ، وأن لا يفتن يهودى عن يهوتيه »^(٤) .

ومن أوف هذه الكتب التشريعية ما كتبه لعمرو بن حزم الانصارى ، وقد بعثه الى بني الحارث بن كعب يعلمهم السنة ، ومعالم الاسلام ويأخذ منهم صدقاتهم وقد حدد فيه واجبات الوالى وكثها واجبات تتبع من شخصيته معلما وهاديا تقينا نقيا قبل أن يكون حاكما وجابيا . فمن أهم واجباته : أن يعلم الناس قواعد الدين من وضوء وصلاة وحج لا في الأصول ولكن في الهيئة وطريقة الأداء بالتفصيل وكذلك الزكاة ومقدارها فيما أخرجت الأرض وفي الابل والبقر . والجزية .

بل جمل من واجبات الحاكم أن يعلم الناس الواجبات الاجتماعية حتى في المظاهر والهيئات نعم هذه الواجبات أن : « ينهى الناس أن يصلى

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ٨١ . والعدل : المثيل والمعاشر : الأثواب .

أحد في ثوب واحد صغير ، الا ان يكون ثوبا واحدا يثنى طرفيه على عاتقيه . وينهى الناس أن يحتبى أحد في ثوب واحد يفضى بفرجه الى السماء ، وينهى أن لا يغتصب أحد شعر رأسه اذا عفا في قفاه . وينهى – اذا كان بين الناس هيج – عن الدعاء الى القبائل والعشائر ، ول يكن دعاؤهم الى الله وحده لا شريك له » .

وختم العهد بما يجب عليه نحو أهل الذمة :

« وأنه من أسلم من يهودي أو نصراني اسلاما خالصا من نفسه ، ودان بدين الاسلام فانه من المؤمنين ، له مالهم وعليه ما عليهم ، ومن كان على نصرانته أو يهوديته فانه لا يفتن عنها . وعلى وكل حالم ذكر أو أنتش ، حر أو عبد دينار واف أو عوضه ثيانا ، فمن أدى ذلك فان له ذمة الله وذمة رسوله وللمؤمنين جميما »^(١٠) .

* * *

والكتاب السابق كما ذكرت كتاب تشريعى شامل ، ولكن هناك ما يمكن أن نسميه « **الكتب التشريعية المخصصة** » وهى تلك انكتب التي تغطى جانبا تشريعيا معينا يعالج الكتاب معالجة تفصيلية دون ادخال مسائل أخرى معه . وأوفى هذه الكتب هو كتابه – صلى الله عليه وسلم – في الصدقات^(١١) الذى كان عند أبي بكر الصديق – رضى الله عنه – وقد كتبه أبو بكر لانس بن مالك حينما استعمله على البحرين . ولم يترك الكتاب صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ، وذلك فيما يتعلق بزكاة الحيوان ، من ابل وبقر وغنم .

ونجتزء بهذين المثلين للكتب التشريعية . وهناك كتب أقل شمولًا وأكثر ايجازا من الكتب السابقة تدور حول أمور اغلبها يتعلق بالعقيدة والفروض الاسلامية . والهدف منها تعليم المسلمين أمور دينهم ، والزام الحكام والعمال والقواد بشرعية الله .

(١٥) انظر جمهرة رسائل العرب ٦٤ - ٦٦ .

(١٦) صحيح البخاري باب زكاة العنم ١٤٦/٢ .

(٤) كتب الاقطاع والغفائم

يقصد بكتب الاقطاع تلك الكتب التي يمنح بمقتضاها فرد من الأفراد أو جماعة من الجماعات الحق في امتلاك الأرض أو ماء أو شجر أو ما شابه ذلك ، أو احتكار الانتفاع بذلك بصفة دائمة أو في وقت محدود . والخلاصة أن الاقطاع يفيد المنح والاعطاء^(٦٧) ، وان انصرف غالبا الى الأرض .

وقد « أقطع » النبي - صلى الله عليه وسلم - أفراداً وقبائل ، ويرجع ذلك الى أسباب تختلف باختلاف الحالات ووراء هذه الأسباب كلها باعث نفسي ، وان شئت فقل : خلقة مركوزة ، وشيمية ثابتة في نفسه وهي الكرم ، فلم يكن هناك من يباريه في هذه الصفة : قال ابن عباس رضى الله عنهم أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ أَجْوَدُ النَّاسِ بِالْخَيْرِ ، وَأَجْوَدُ مَا كَانَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ... وَعَنْ أَنْسٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ غَنِمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، فَرَجَعَ إِلَى بَلْدِهِ وَقَالَ : « اسْلُمُوا ، فَانْ مُحَمَّدًا يَعْطِي عَطَاءً مِنْ لَا يَخْشِي فَاقْتَةً . وَأَعْطَى غَيْرَ وَاحِدٍ مائَةً مِنَ الْأَبْلِ ، وَأَعْطَى صَفَوَانَ مائَةً ثُمَّ مائَةً وَقَدْ قَالَ لِهِ وَرَقَةَ بْنَ نُوْفَلَ : أَنْكَ تَحْمِلُ الْكُلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَرَدَ عَلَى هَوَازِنِ سَبَايَا هَا وَكَانُوا سِتَّةَ آلَافَ »^(٦٨) .

وهناك سبب من أسباب الاقطاع - وان كان خاصا بالمهاجرين - وهو **ال الحاجة الى العيش والاستقرار ، فقد واجهت محمدًا - صلى الله عليه**

(٦٧) جاء في لسان العرب : ۰۰۰ القطعة من الشيء : الطائفة منه ۰۰ والقطيعة ما اقتطعه منه . واقتطفنى اياها : أذن لي في اقتطاعها . واستقطعه اياها : سأله ان يقطعه اياها . واقتطفته قطيعة : او طائفة من ارض الخراج ، واقتطفه نهرا : أباحه له . وفي حديث أبيض بن جمال : انه استقطعه الملح الذي بمارب فأقطعه اياه .

(٦٨) القاضى عياض : الشفا ٨٦/١ .

وسلم — حين تولى زمام الأمور في المدينة المنورة مشكلة حادة تحتاج إلى حل فوري ، وهى « توفير السكن للمهاجرين » ومعظم هؤلاء كانوا فقراء لا مساكن لهم بالمدينة . وكإجراء سريع لايواههم آخر بين الأنصار والمهاجرين ، والذى قد يعنى في صميمه اقتسام الثروات الموجودة بين الجانبيين ، ولكن هذا انحل كان حلا مؤقتا وجزئيا في نفس الوقت ، لجأ النبي — عليه السلام — بعده إلى منح المهاجرين أراضي سكنية داخل المدينة برضى من الأنصار ، وقد بني المهاجرون فيها دورا لهم .

ثم كان هناك دافع للتعمير ، فأقطع النبي عليه السلام عددا من المهاجرين أراضي في أودية المدينة الشهيرة مثل العقيق وينبع والفرع والبقيع وكلها أراضي غير مستصلحة . ويتراوح موضوع الاقطاع فيها ما بين النخيل والآبار والمعادن والأرض . ويروى التاريخ أن النبي عليه السلام قد أقطع من أرض المدينة ما كان عفاء ، أى ما ليس لأحد فيه اثر ، أو ما ليس فيه ملك .

ثم كانت حملات الرسول — صلى الله عليه وسلم — ضد اليهود ، المدينة التي انتهت بطردهم جماعة اثر جماعة ، وبنفيهم التدريجي عن مواطنهم حول المدينة ، فقد اتاحت الأرض الفنية التي خلفوها فرصا كبيرة أمام السكان الجدد ، والروايات مليئة بالتفاصيل عن القطاعين التي منحت للصحابة الذين كانوا يسكنون المدينة ولغيرهم من كبار الشخصيات^(٦٩) .

وزيادة على الوعاء السابقة هناك سبب يتعلق بمصلحة الدين واندولا وهو تأليف قلب الشخص وجذبه للإسلام للانتفاع بقدراته

(٦٩) انظر : عون : نشأة الدولة الإسلامية - ٢٧١ - ٢٧٥ .

ومكانته ونفوذه لصالح الاسلام وال المسلمين مثل « مجاعة بن مرارة »^(٧٠) فقد قدم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في وفده بنى حنيفة وكان فيهم مسليمة الكذاب . فسأل مجاعة رسول الله أن يقطعه أرضاً فاقطعه اياها ، وكتب له بذلك كتاباً نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب كتبه محمد رسول الله لجاعة بن مرارة بن سلمي ، انى أقطعتك المغورة وغرابة والحبيل »^(٧١) .

اما نموذج الاقطاع الجماعي فاقطاعه للداريين^(٧٢) ، فقد روى أنه قدم من الشام نفر منهم على النبي وهو في مكة قبل الهجرة ، فأسلموا ، وسألوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يقطعهم أرضاً من أرض الشام ، فدعا بقطعة من أدم ، وكتب لهم فيها كتاباً نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله للداريين اذا أعطاهم الأرض . وهب لهم بيت عينون وحبرون والمرطوم ، وبيت ابراهيم — عليه الصلاة والسلام — بمن فيهن لهم الى الأبد » .

شهد بذلك عباس بن عبد المطلب ، وخزيمة بن قيس ، وشريحيل بن حسنة ، وكتب وأعطاهم الكتاب ، وقال انصرفوا حتى تسمعوا انى قد هاجرت فانصرفوا^(٧٣) .

(٧٠) وكان من رؤساء بنى حنيفة وعظمائهم وأصحاب الرأى فيهم ، وهو في السيطرة على قومه ومكانته بينهم ياتي بعد مسليمة ، وإن كان أرشد منه وأبعد نظراً [انظر أسد الغایة ٦١/٥] . وأنظر في ذلكه وحسن تبشيره وبراعة تصرفه أيام اليمامة وهو مرقد فتوح البلدان ١٠٠ .

(٧١) فتوح البدان ١٠٣ - المغورة وغرابة والحبيل : مواضع باليمامية .

(٧٢) هم بنو عبد الدار بن هانئ بنى حبيب .

(٧٣) جمهرة رسائل العرب ٧١ .

وقد يأخذ الشك بعض الباحثين في هذا الكتاب مثل الدكتور حميد الله الذي اعتمد في شكه في مثل هذا اللون الكتب على ركيزتين :

الأولى : معيار « الوضع والصحة » الذي أخذ به نفسه في التحقيق وهو أن الوثائق التي لا تشتمل إلا على الحقوق دون الواجبات تعتبر موضوعة^(٧٤) .

والثانية : التكيف القانوني للجماعة الإسلامية فقد كان عصر النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل انهجرة عهد تمهيد وتجربة ، ولا يصح أن يقال ان الجماعة الإسلامية بمكة كانت حينئذ دولة من الدول ، فانه لم يكن لها كيان سياسي ، ولا نظام اداري . ولا تصادف في هذا العصر ما يطلق عليه اسم السياسة الخارجية سوى بيعتى العقبة لا أنهما لم تكتبا في قرطاس ، ولم تؤخذان الا سرا^(٧٥) .

ولكن ما ذهب اليه الدكتور حميد الله في كتابه القيم - أو بعض ما ذهب اليه - في حاجة الى نظر :

١ - فليس هناك ما يمنع عقلاً وعادةً أن يكون هناك من الوثائق ما يشتمل على حقوق فقط . بل أن « وثيقتي » العقبة - وإن كانتا شفوتيتين - لم تشتملا إلا على « حقوق » منتظر في أعناق الأنصار نحو النبي - عليه السلام - وجماعة المسلمين . وأعتقد أن تعميم الحكم بهذه الصورة على كل « وثائق الحقوق » غير سليم ، والأصح من ذلك - في رأيي - هو النظر إلى هذا اللون من الوثائق .. كل وثيقة على حدة ، أو بعبير أدق : ينظر إلى « الحقوق » التي تضمنها الوثيقة ويتم تقييمها تقييمًا موضوعيًا وتاريخيًا ، والبحث في إمكان منحها أو عدمه ، وكذلك تقييم الوضع الاجتماعي

(٧٤) مجموعة الوثائق السياسية ١٨ .

(٧٥) السابق ١٣ .

والدينى والسياسى لكل من « المانع » و « المنوح » وطبيعة العلاقات التى تربط بينهما ، على ما هو معروف فى مناهج البحث والتحقيق .

٢ — ونحن مع الدكتور حميد الله فى مقولته الثانية فى شكلها العام ، فصحيح ما ذهب اليه من أن الدولة الاسلامية لم يكن لها « وجود فعلى » الا فى المدينة بعد هجرة النبى — عليه السلام — اليها . وأن كتابة الوثائق ارتبطت بنشأة الدولة . نعم هذا صحيح ، ولكن استخدام النبى وال المسلمين الكتابة بدأ فى مكة ، فكتبوا آيات القرآن الذى نزلت بمكة أو بعضها ، فليس هناك أيضا ما ينقض هذه الوثيقة اعتمادا على الحكم العام بارتباط كتابة الوثائق بوجود الدولة ، وخصوصا أنها تكاد تكون الوثيقة الوحيدة التى كتبها النبى قبل الهجرة .

٣ — ولكن قد يأتي الشك فى هذه الوثيقة من ناحية النظر الى « طبيعة الحقوق المقطعة » وتوقيت المنح . فهى تمثل اقطاعات ضخمة . ثم كيف يقطع النبى — عليه السلام — ما لا يملك ، وما لا يملك المسلمون آنذاك ؟ أو بتعبير آخر : كيف يمكن قوما أشياء لا يعلم الا الله ان كانت تستثول لجماعة المسلمين أم لا ؟

ولكننا لا نستبعد صحة الوثيقة : فمنح الكثير والغزير ليس غريبا وليس كثيرا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد رأينا صورا من كرمه التى عرضها القاضى عياض فى كتابه « الشفاء » .

وفي سيرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — واقعة منح أشياء منحا ممسانا الى المستقبل ، فقد كتب كتابا لسرقة بن ملك أو على الأقل وعده وعدا شفويا مؤكدا بحقه في سوارى كسرى وكان ذلك والنبوى في طريقه من مكة الى المدينة مهاجرا مع صاحبه أبي بكر .

ولماذا لا يكون ذلك من « اشرافات النبوة » وهي نعمة يمنحها الله أنبياءه يعبر عنها النبي — عليه السلام — حتى في حالات الضيق والكرب تقسوة لعزم المسلمين ، وزرعا للأمل والثقة بالله في نفوسهم ، وقد جاء في الآخر ما خلاصته أن المسلمين أثداء حفر الخندق وهم مهدودون بانقضاض قريش والأحزاب عليهم في آية لحظة اعترضتهم صخرة فلما ضربوها بالمعاول برقت ثلاث مرات فقتل النبي — صلى الله عليه وسلم — « أَنِّي رأَيْتُ فِي الْأَوَّلِ قَصْرَ كَسْرَى الْأَبْيَضَ بِالْمَدَائِنِ . . . هَذِهِ فَقْوَحَةٌ يَفْتَحُهَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي ، يَا سَلَمَانَ اتَّفَتَحْنَ الشَّامَ ، وَيَهْرَبُ هَرْقَلُ إِلَى أَقْصَى مَلْكَتِهِ ، وَتَظَاهِرُونَ عَلَى الشَّامَ ، وَلَا يَنَازِعُكُمْ أَحَدٌ ، وَلَتَفْتَحْنَ الْيَمَنَ ، وَلَتَفْتَحْنَ هَذَا الْمَشْرِقَ ، وَيُقْتَلُ كَسْرَى فَلَا يَكُونُ كَسْرَى بَعْدَهُ »^(٢٦) .

واحتمال تزوير هذا الكتاب بعيد بل مستحيل لأن النبي — عليه السلام — قيد ذلك الاقطاع بعبارة « . . . أَذَا أَعْطَاهُ اللَّهُ الْأَرْضَ » ثم قال لهم « انصروا حتى تسمعوا أني قد هاجرت » وهو ايحاء لهم بأن الكتاب يحتاج إلى ما يؤكده ويوثقه في المدينة بكتاب آخر .

غليس ثمة داعية للتزوير لأنهم يعلمون أن الكتاب لابد من توثيقه في المدينة ، وهذا ما فعله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اذ قدموا عليه في المدينة فسألوه أن يجدد هذا العهد ، فكتب لهم كتابا جديدا بنفس المضمون ، وقريبا جدا من صيغة الكتاب السابق^(٢٧) . كما أن أيا

(٢٦) انظر امتناع الأسماع ٢٢٣ . وقد روى أن الزبير بن العوام هم بالانصراف عن قتال على في « الجمل » لما علم أن « عمار بن ياسر » يقاتل في جيش على ، فخاف أن يقتل عمارا وقد قتل النبي — صلى الله عليه وسلم — « تقتلنكم الفتنة الباغية » .

[انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٤٨/٣ . وتاريخ الطبرى ٣٨/٥]

(٢٧) مجموعة الوثائق السياسية ١٠١ . وجمهرة رسائل العرب ٧٢ .

بكر جدد لهم الكتاب في عهده ، وكتب إلى قائد عسکره في الشام أبا عبد الله ابن الجراح يطلب منه حمايتهم وتمكينهم من تنفيذ مضمون الكتاب^(٧٨) .

* * *

حالات أخرى من اقطاع النبي عليه السلام :

ومن حالات الاقطاع وصورها ما أقطعه النبي - صلى الله عليه وسلم - : **بلال بن الحارث** ، وهو كثير منه « معادن القبلية » ، وهى أرض كبيرة لا زرع فيها تمتد من المدينة إلى جهة مكة ، وتلامس أطرافها ساحل البحر .

ومنها اقطاع **الزبير بن العوام** « حصن البويلة » . وهى أرض ذات نخل من أراضي مبني النضير . ومنها اقطاع **عوسجة بن حرملة الجهنى** أرضاً تسمى « بلكتة » أو « بلاكث » ، وهى في نفس المنطقة التي يقطنها « عوسجة » ، وكان من المسلمين المخلصين الأتقياء .

ومنها كذلك اقطاع « **يزيد الحارثى** » وقومه الذين دخلوا في الإسلام في آخر العام العاشر الهجرى ، وهاجروا من موطنهم في نجران - مقر بني الحارث - إلى المدينة . وقد أقطعهم النبي - عليه السلام - أرضاً تسمى « نمرة » وأرضاً تتبعها تسمى « وادي الرحمن » .

وهذه الاقطاعات كلها مثبتة في كتب كتبها النبي - صلى الله عليه وسلم - لأصحابها أثباتاً لحقوقهم فيها ، وأغلبها كما هو ظاهر موضوعه « الأرض » ، سواء أكانت أرضاً زراعية ، أو أرضاً تتخذ مكاناً للبناء

(٧٨) مجموعة الوثائق ١٠٣ . والجمهرة : السابق ٧٤ .

والسكنى . ولا يتسع المقام للوقوف طويلا أمام هذه الوثائق ، فنذكر فيما
الاشارات السابقة إليها^(٧٩) .

* * *

كتب الفيائِم

وهي الكتب التي ينص فيها على انصبة معينة لبعض الشخصيات من الفيائِم أو الفيء ، وهي غالباً ما تزيد على الحق المتعارف عليه لهم وللآخرين ولا ما نص عليه ، وما كان هناك قيمة لكتاب ما دام الحق مضموناً معروفاً شأنه شأن الآخرين . ومن هذه الكتب كتاب قسمة قمح خبير ونصه :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : ذُكْرُ مَا أَعْطَى مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نِسَاءَهُ مِنْ قَمْحِ خَبِيرٍ : قَسْمٌ لَهُنَّ مَائَةٌ وَسَقٌ وَثَمَانِينَ وَسَقًا ، وَلَا سَامِةُ بْنُ زَيْدٍ أَرْبَعِينَ وَسَقًا ، وَلَمَّا قَدِادُ بْنُ الْأَسْوَدِ خَمْسَةُ عَشَرَ وَسَقًا ، وَلَمَّا رَمِيَّةُ خَمْسَةُ أَوْسَقٍ . شَهَدَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ ، وَعَبَّاسٌ ، وَكَتَبَ »^(٨٠) .

ومثله كتاب « مقاسن أموال خبير » ، وهو كتاب ينص بصورة مباشرة على انصبة خاصة من طعمة خبير : فلأبي بكر مائة وسق ، ولعقيل بن أبي طالب مائة وأربعين ... الخ والكتاب يحدد انصبة أكثر من أربعين شخصية ، وفيهم عدد من النساء ، كما ذكر الكتاب نصياً لبني جعفر بن أبي طالب^(٨١) ولبيت آخر هم بنو عبيدة بن الحارث^(٨٢) .

(٧٩) انظر د. عون الشريفي قاسم : نشأة الدولة الإسلامية على عبد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ٢٥١ - ٣٦٦

(٨٠) مجموعة الوثائق السياسية ٧٢ . والوسق (بفتح الواو وتنكين السين) في أصل معناه : حمل البعير . وهو : ستون صاعاً أو ثلاثمائة وعشرون رطلاً عند أهل الحجاز ، وأربعمائة وثمانون رطلاً عند أهل العراق على اختلافهم في مقدار الصاع والمد . [لسان العرب مادة وسق] ، وتجمع على أوسق (كانجم) ووسق (كحر) .

(٨١) جعفر بن أبي طالب هو ابن عم النبي ، وكان على رأس المهاجرين إلى الحبشة في الهجرة الأولى والثانية ، وكان أحد قادة مؤته الثلاثة الذين استشهدوا ، وقد وجد في جسده أكثر من تسعين جرحاً من ضربة أو رمية [مجازي الواقعى ٤٠٣/١] .

(٨٢) هو عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب استشهد يوم بدر سنة ٢ هـ (السابق ٤٣/١) .

ويلحق بهذا اللون من الكتب كتابه لبني عريض اليهودي الذين أهدوا إليه هريسا فاكليها^(٨٣) . فكتاب النبي – صلى الله عليه وسلم – لهم كتاباً أجرى فيه لهم كل عام عشرة أو سبعة من القمح ومثلها من الشعير في كل حصاد ، وخمسين وسبعين من التمر^(٨٤) .

والكتب التي عرضناها وما شابهها تلتقي كلها في صفة « الفح والاعفاء » للأسباب التي ذكرناها . وواضح أنها تعتمد على معالجة الموضوع معالجة مباشرة ، والأفواه فيها محددة المدى . أما كتب « الغنائم » فغاصبة بالأرقام ، وسنفي هذا الجانب حقه عندما نعرض لخصائص أسلوب النبي – عليه السلام – في رسائله .

٨٣) امتاع الأسماع ٤٥٥ .

٨٤) انظر نص الكتاب في « الواقع السياسي » ٧٣ .

(٥) الكتب الادارية والتنظيمية

وهذا النوع من الكتب يصدق على الكتب التي تتعلق بتنظيم أمور الدولة وادارتها في حالتي الحرب والسلم . ومنها ما يمكن أن نسميه **بكتب التولية والتنصيب** ، وهي الكتب التي يكلف فيها شخص معين بمهمة معينة كأن يكون واليا أو أميراً حرب أو سفيراً أو جابياً أو ما شابه ذلك من الأمور ، والأصل في القواعد السياسية هو حظر أن يطلب المسلم السلطة والامارة لنفسه ، وهي « من القواعد التي قام عليها بناء الدولة الاسلامية » وتعنى أن الذين يطلبون المناصب القيادية في الحكومة بوجه عام ، والخلافة بوجه خاص ، ويجهدون في ذلك هم أقل الناس كفاءة وصلاحية . . . يقول — عليه الصلاة والسلام — « انا والله لا نولى على عملنا هذا احداً ساله او حرص عليه » . . . وقوله لعبد الرحمن بن سمرة « لا تسأل الامارة فانك ان اوتيتها عن مسألة وكلت اليها ، وان اوتيتها عن غير مسألة أمنت عليها » ^(٨٥) .

ومن كتب « التولية » كتابه لرفاعة بن زيد الخزاعي الذي قدم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في هدنة الحديبية — أواخر سنة ست — ، فأسلم وحسن إسلامه ، وكتب له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كتاباً إلى قومه ينص فيه على أنه بعثه إلى قومه عامة ، ومن دخل فيهم ، ليقوم بمهمة الدعوة إلى الله ورسوله . . . ^(٨٦) .

ومن هذه الكتب ما فيه تحديدات وأوامر ادارية وتنظيمية تحدد بمقتضاهما المهام والحقوق منعاً للتدخل والابتزاز في الاستخدام والاستعمال

(٨٥) المودودي : الحكومة الاسلامية . ٢٩٧ .

(٨٦) انظر نص الكتاب في جمهورة رسائل العرب ٤٩ .

كتابه — صلى الله عليه وسلم — لأكيدر دومه وهو أكيدر بن عبد الملك الكندي وكان ملكاً على دومة الجندول ، وكان نصراً نسراً^(٨٧) .

وقد يكون الكتاب أكثر تحديداً إذ ينظم مسألة معينة ويضع عقوبة قانونية للمخالف لكتابه لثيق^(٨٨) يحظر فيه قطع عضاه ووج^(٨٩) وجعل الجلد عقوبة للمخالف ، وفي حالة الاسراف في المخالف يبعث بالمخالف لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — في المدينة ليرى فيه رأيه .

ومن هذا النوع أيضاً كتاب كتبه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأبي ضميرة وأهل بيته يعلن فيه اعتاقهم ، وأنهم أهل بيت من العرب . ويوصي بهم من يلقاهم من المسلمين^(٩٠) . وقد شفع النبي صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب بقرار عام هو « لا يفرق بين ولدة وولذها »^(٩١) .

والفرق بين هذه الكتب والكتب التشريعية أن هذه الأخيرة تتعلق غالباً بالفرضيات الدينية وأركان الإسلام وخصوصاً الزكاة ، كما أنها أكثر اطناباً وتفصيلاً أما الكتب الإدارية فهي تنظم مسألة محددة على وجه اليقين . إلا أن هذا التقسيم يبقى في النهاية صناعياً هشاً ، لأن الكتب التشريعية فيها إدارة وتنظيم .. كما أن الكتب الإدارية والتنظيمية هي في حقيقتها كتب تشريعية . فهو تقسيم اعتمد على الطابع « الغالب » لا لطابع المطلق .

(٨٧) انظر نص الرسالة في فتوح البلدان للبلذري ٧٢

(٨٨) انظر جمهرة رسائل العرب ٥٤

(٨٩) الضاء : كل شجر عظيم وله شوك . ووج : واد في الطائف . ويظهر أن هذا الشجر في هذا الوادي بصفة عامة كان ذا فائدة تعم المجتمع ، وفي قطمه أضرار به .

(٩٠) انظر نص الكتاب والظروف التي ارتبطت به في « أسد الغابة » ٦٤/٣

(٩١) أي في حالة الاسترقاق .

(٦) كتب التجسس والاستطلاع

اقتضى بعد نظر الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يؤمن الدعوة إلى الدين الحنيف والأمان للصحاببة والتابعين ، فادخل نظام العملاء السريين ، إذ كان العباس هو العميل السري للرسول في مكة ، والمنذر بن عمرو بن مساعد هو العميل السري في نجد ، وكانت مهمة هؤلاء العملاء جمع المعلومات ، وإطلاع الرسول — عليه الصلاة والسلام — على سير الأمور في مناطق عملهم . وهي مهمة تشبه إلى حد كبير ما يقوم به السفير في الوقت الحاضر ، فعليه متابعة الأحداث ، وما يجري داخل البلد الذي يعمل فيه وسير الأمور ، ثم يرسل تقريرا بذلك لحكومته^(٩٢) .

وقد قام العباس بن عبد المطلب بدور جليل في هذا المجال فبقوائه في مكة ، وعدم هجرته إلى المدينة كان فيه خير كبير للمسلمين ، وحينما سارت قريش لقتال النبي — صلى الله عليه وسلم — في أحد كتب العباس بن عبد المطلب كتابا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع رجل من بنى غفار يخبره بذلك ، فتقدم عليه وهو بقباء ، فقرأه عليه أبي بن كعب ، واستكتم أبيا . ونزل رسول الله — عليه السلام — على سعد بن الربيع

(٩٢) السفير محمد التابعي : الدبلوماسية في الإسلام . ١٧

ونحن لا ننافق الكاتب على استعمال كلمة «عميل» بالنسبة للصحابيين الجطيلين لأن الكلمة في استعمالها الحالى تتطابعاً كريهاً أن يوصف بها أذ توحى بالغدر والخيانة واستعمال الوسائل غير الإنسانية ، وربما كانت الكلمة القديمة (عين) أنساب وألق وأدل على المعنى المراد .

كما نخالف الكاتب في تشبيه «العميل السرى» بالسفير ، فبينهما فرق شاسع ، لا في الشكل والإجراءات فحسب ، ولكن في طبيعة المهمة الموقعة بكل منهما مما لا يتسع المقام لشرحه . والمنذر هو المنذر بن عمرو يصعد نسبة إلى ساعدة بن كعب بن الخزرج وليس ابن مساعد كما وهم الكاتب ، وهو لم يؤد الدور الذى أكده الكاتب وهو التجسس في نجد ، بل استشهد مع أصحابه على بئر معونة سنة ٤ هـ .

فأخبره بكتاب العباس ، فقال : والله أنى لأرجو أن يكون في ذلك خير^(٣) . والكتاب كان من سطر واحد فقط ، ونصه : «اصنعوا ما كنتم صانعوا اذا وردوا عليك ، وتقدم في استعداد التاهب»^(٤) .

والكتاب بهذه الصورة يوحى – ويكاد يقطع – بأنه رد على كتاب من النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يخبرنا التاريخ بأمره ، يعرض النبي فيه خطة معينة على العباس في حالة زحف قريش على المدينة ، أى أنه رد على كتاب سابق ، أو على الأقل رسالة شفوية بعث بها النبي – عليه السلام – إلى العباس – رضي الله عنه – لم يتقدّم لها التاريخ نحوها .

ومن كتب الجاسوسية أو التخابر مع العدو كتاب حاطب بن أبي بلقعة^(٥) ، الصحابي الذي أرسل ألى قريش – والنبي يتهمها لفتح مكة – كتابا يقول فيه « ان رسول الله قد أذن في الناس بالفزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن يكون لي عندكم يد بكتابي اليكم »^(٦) . ولكن الكتاب لم يصل ألى قريش فقد كشف الله للنبي عليه السلام أمره ، واستطاع على والزبير – رضي الله عندهما – أن يدركه الرسول الذي حمل الكتاب وهى امرأة مزنية . وقال حاطب لما استجوبه النبي « يا رسول

(٩٣) امتاع الأسماء ١١٤ .

(٩٤) مجموعة الوثائق ٥٠ .

(٩٥) حاطب بن أبي بلقة صحابي جليل شهد بدرًا ، وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يثق به ويقدره ، لذا اختاره النبي – صلى الله عليه وسلم – ليحمل كتابه إلى المuros عظيم القبط ، وقد دار بينهما حوار ، بعده أعجب به المuros وقال له « أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم » . ولا شك أن ما فعله حاطب باخبار قريش باستعداد النبي – عليه السلام لحربهم – غلطة في لحظة من لحظات الضعف البشري لا تستوعب لبعض المترنجين من الكتاب أن يخوضوا ويسفكوا في أخلاق الصحابة . والنبي – صلى الله عليه وسلم – رأى أن للرجل من الماضي العميد ما يشفع له هذه الزلة ، وخاصة أنها كانت الأولى في حياته . وربما رأى النبي أن هذه الرسالة لا قيمة لها من الناحية العملية لأن قريشا بعد مساعدتها ليكر في تلك خزاعة أحسنت أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لن يسكن عن خرقها لعاهدة الخديبية بيعتث ببابي سفيان يأخذ جوارا من الرسول . [انظر أسد الغابة ٤٣١ - ٤٣٢] .

(٩٦) امتاع الأسماء ٣٦٢ .

الله ، لا تعجل على ، أما والله أنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدل ، ولكنى كنت امرءاً ليس لى في القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم ، فأحبببت أذ فانتى ذلك من النسب فيهم أن أتخاذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى ، ونم أفعله ارتداداً عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الإيمان .

ونظر النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى تلك الجناية التي ارتكبها بحسن نية . وهي تعد في الشرائع الوضعية من الخيانة العظمى للدولة ، والعقوبة التي تستحقها هي عقوبة القتل . ولكنه نظر إلى من حوله من أصحابه فقال لهم : « انه قد صدّقكم ، ولا تقولوا له الا خيراً .

فقال عمر « يا رسول الله ، دعنى فلأضرب عنقه فان الرجل قد نافق » .

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم : « انه قد شهد بدرًا ، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر يوم بدر ، فقاتل اعملوا ما شئتم فقد غرفت لكم » .

وهذا يدل على أن عقوبة التجسس القتل ، لأن النبي - عليه السلام - أرشد إلى أن عنة تركه أمر عمر بقتل حاطب أنه من أهل بدر ، فدل على أن من فعل فعله ، ولم يكن من أهل بدر يستحق القتل .

وقد رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد هذا أن يعفو عن حاطب بما له من حق العفو ، وراعى في هذا تلك الأحوال التي اقترن بجنابته ، فخففت من أمرها وجعلت العفو أولى من غيره فيها^(٩٧) .

^(٩٧) انظر عبد المتعال الصميدى : القضايا الكبرى في الإسلام ٤٠

وقد يلحق بهذا النوع من الكتب ما يكون تكليفاً بمهمة تجسسية أو استطلاعية معينة ومثالها ما جاء في امتعة الأسماع ص ٥٦ من أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كلف أبي بن كعب بكتاب في قطعة من أدم وطواه دون أن يعرف أحد ما فيه إلا النبي وكاتبته . وسلمه لعبد الله بن جحش ومعه جماعة من المسلمين وأمره أن يسير ومن معه في طريق عينها له وأمره **الآن يفتح الكتاب إلا بعد مسيرة ليالٍ** .

وسار وفتح الكتاب فإذا نصه « سرحتي تأني بطن نخلة على اسم الله وببركاته ، ولا تكرهن أحداً من أصحابك على السير معك ، وامض لأمرى فيما تبعك حتى تأني بطن نخلة على اسم الله وببركاته ، فترصد بها غير قريش » .

* * *

ونلاحظ أن كتب التجسس هي أقل الكتب وجوداً ، وربما كانت هي أقل الكتب وروداً في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - . كما نلاحظ أنه ليس بين كتب النبي - عليه السلام - كتاب واحد نقل علينا يدور حول هذا الموضوع ، كان يكلف شخصاً معيناً بأن يقوم بهذه المهمة ، مهمة التجسس في أرض العدو ، وإن كان كتاب العباس - رضي الله عنه يوحى بأن هناك كتاباً من النبي يسبق كتاب العباس هذا .

(٧) الكتب الشخصية أو الخاصة

مفهوم الرسالة الخاصة :

أشرنا من قبل الى أن الرسالة الشخصية أو الأخوانية أو الرسالة الخاصة هي الرسالة التي تتناول موضوعاً خاصاً بين شخصين تربط بينهما - غالباً - علاقة إنسانية أو علاقة نسبية كالماضي والأخوة والأبوة كالرسائل بين الأصدقاء والأقارب في الموضوعات الأسرية والمناسبات السارة أو الحزينة وما شابه ذلك . وهي تأتي مقابلة للرسالة العامة أو الديوانية التي تتعلق بأمر من أمور الدولة أو الشريعة أو مصالح الناس في الحرب والسلام .

والرسالة تكون خاصة أو شخصية اذا ما دارت حول موضوع شخصي حتى لو كان طرفاً لها أو أطرافها شخصيات عامة كرؤساء وقادة وزراء لأن هؤلاء جميعاً لهم جانبهم الشخصي وحياتهم الخاصة التي يشبهون فيها جميع الناس^(١٨) .

ومن ثم نرى أن الصواب قد جذب أحد الباحثين^(١٩) حين اعتبر من الرسائلات الخاصة ما كتبه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى عماله وأمراء سراياه ، وقد تناولت أموراً توجيهية هدفها تفقيره أولئك العمال بأمور الدين ، وسياسة الرعية وجبائية ما عليهم من صدقة أو جزية وغير ذلك ، ومنها الرسائل الجوابية الموجزة التي تعرض الطول الناجمة ،

(١٨) هناك أيضاً ما يسمى « بالرسائل الأدبية » ، وهو لون من ألوان الكتابة الإنسانية التي يحررها الكاتب إلى غيره لغرض من الأغراض ، فتشمل الخطاب كما تشمل الجواب وتشمل المقالات الإنسانية كما تشمل المنشآت الأدبية . [د. محمد نبيه حجازي : روائع الأدب في عصور العربية الظاهرة ٢٣٤/١]

(١٩) غانم جواد : الرسائل الفنية ٧٥ - ٧٩ .

والأسلوب الذى يجب أن يتبعه قائد الجيش ازاء من يعتنق الدين الجديد ،
كرسالته — صلى الله عليه وسلم — الى خالد بن الوليد جواباً عما كتبه
إليه بسلام بنى الحارث بن كعب . ومذها كذلك الرسائل التي بعث بها
النبي — صلى الله عليه وسلم — الى بعض المرتدين والمرجعيين أو الى من
آذرهم ولم يعتنق الإسلام بعد . وقريب من هذا الضرب ما كتبه النبي
— صلى الله عليه وسلم — الى أكثم بن صيفي يعرفه بدعة الإسلام ومبادئه
السامية .

* * *

والحقيقة أن كل هذه الرسائل تعتبر رسائل عامة لأنها تدور حول
أمور ومسائل تتعلق بالعقيدة والشريعة والإدارة وال الحرب . وكل ما ذكره
الكاتب من أمثلة ينتمي تماماً الى الأنواع والألوان التي عرضنا لها في
الصفحات السابقة وخصوصاً الكتب التنظيمية والإدارية ، وكتب الدعاة الى
الإسلام . وهي لا تختلف عنها في موضوعاتها وقيمها التي تناولتها .

* * *

رسالة الى معاذ في التعزية :

ولعل الرسالة الأخوانية الخاصة الوحيدة التي نقلها لنا التاريخ
هي رسالة النبي — صلى الله عليه وسلم — الى معاذ بن جبل يعزيه في
ابن له مات وفيه يقول « . . . فعظم الله لك الأجر ، وألهمك الصبر ، ورزقنا
وياك الشكر ، ثم ان أنفسنا وأهلينا وموالينا من مواهب الله السنية ،
وعوارفه المستودعة . . . وكان ابنك من مواهب الله الهنية ، وعوارفه
المستودعة ، متعمق به في غبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير » (١) .

(١) صبح الاعنى ٨٠/٩

ويشكك غانم جواد في الرسالة بقوله « إن التحقيق العلمي انتاريخي ينفي صحة نسبة هذه الرسالة للنبي »^(١٠١) ولا يقدم أى دليل على ذلك الا « اختلاف المؤرخين حول شخصية ابن معاذ عبد للرحمن ، وهل ولد معاذ غيره . والشائع أن معاذ قد ولد له ، وأن ابنه مات في الشام بطاعون عمواس في خلافة عمر .. »^(١٠٢) .

ولكن اختلاف المؤرخين في شخصية ابن معاذ عبد الرحمن لا ينفي الرسالة بأية حال حتى لو تأكد على وجه اليقين أن عبد الرحمن بن معاذ قد مات في طاعون عمواس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فليس هناك ما يمكن أن تكون الرسالة تعزية لمعاذ في ابن غير عبد الرحمن فالرسانة لا تشير إلى اسم الابن المعزى فيه .

وقد يشك بعضهم في الرسالة لأنه ليس في الوثائق النبوية ما يقتضي إلى مثل هذا النوع من الرسائل . ولكن عدم وجود غيرها لا ينفيها . ولا غرابة أن يعزى « النبي الانسان » صحابياً جليلاً كان النبي يعتز به ، ويعرف له بالفضل والعلم^(١٠٣) .

(١٠١) الرسائل الفتية . ٧٧

(١٠٢) السباقي نفس الصفحة .

(١٠٣) ولاه النبي - صلى الله عليه وسلم - على اليمين ، فلم يزل باليمين حتى توفى النبي . وقد جاء في الأثر قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم « ... وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » . وقال جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - « كان معاذ بن جبل من أحسن الناس وجها ، وأحسنه خلقنا ، وأسمحه كثنا ... » . وقال ابن مسعود « إن معاذ بن جبل كان أمّة فانتا له حنيفا ، ولم يكن من المشركين » . [انظر أسد الغابة ١٩٤/٥ - ١٩٧] .

(١٠٤) سنعرض لذلك بالتفصيل في الفصل الأخير من هذه الدراسة . وهو الفصل التالي .

(٨) الكتب الجوابية

وهي الرسائل التي لم تكتب ابتداء اعتمادا على غرض معين ، ولكنها تكتب ردًا على رسالة وجهت للرسول — صلى الله عليه وسلم — فارتباطها موضوعيا يكون بالرسالة الأولى .

وكان النبي — صلى الله عليه وسلم — وهو الذي أدبه ربه وأحسن تأديبه يحرص على أن يجيب بما يبعث إليه من الكتب حتى ما خبث منها وأساء إلى الدين والخلق ، فقد كتب إليه مسلمة الكذاب كتاباً من هذا النوع فكان رده « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : مَنْ مُحَمَّدَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ فَكُلُّ ذَرْفٍ كَذَابٌ وَكُلُّ سَلَامٍ عَلَى مَنْ أَتَى بِهِ الْهُدَىٰ . أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَقْبِنِ » (١٠٠) .

ومن كتبه الجوابية رده على خالد بن الوليد ، وكان خالد قد أرسل إليه كتاباً يخبره فيه بإسلام بنى الحارث بن كعب ، ويسأل عما يفعل ، فكان رد النبي — عليه السلام — ، وفيه يطلب منه أن يبشرهم وينذرهم ، وأن يقبل إلى المدينة ، ويقبل معه وفدهم (١٠١) .

ويلاحظ أن النبي — صلى الله عليه وسلم — يذكر في رده خلاصة لكتاب خالد المردود عليه تذكيراً بمضمونه لأن وصول الكتاب يستغرق وقتاً طويلاً إذ كانت مساكن بنى الحارث في نجران .

وقد يمتد حبل التراسل فيكون هناك ما يمكن أن نسميه « رد الرد » . ومن نماذجه رد النبي — صلى الله عليه وسلم — على كتاب أرسله إليه المذري بن ساوي ملك البحرين ردًا على كتاب النبي — صلى الله عليه وسلم — يدعوه فيه وقومه إلى الإسلام ، والذي حمله إليه العلاء بن الحضرمي في العام السادس للهجرة .

(١٠٥) سيرة ابن هشام ٤/١٨٩ . وأنظر كذلك كتاب أبي سفيان ورد النبي عليه .
[٢٤٠ - ٢٣٩] امتاع الأسفار

(١٠٦) أنظر نص الكتاب في صبح الأعشى ٦/٣٧٦ .

(٩) كتب الآخرين

كانت رسائل النبي — صلى الله عليه وسلم — هي أكثر ما نقله لنا التاريخ من وثائق ، فهي في مجموعها أكثر من الرسائل والمعهود التي كتبها غيره من المسلمين أو الكفار أو المرتدين ، ويرجع ذلك إلى أسباب متعددة : أهمها :

- ١ — نشوء الدولة الجديدة وما يتضمنه ذلك من الكتب والرسائل والمعاهدات ، على ما بينا سابقا .
- ٢ — الاهتمام بكتابة السنة النبوية — ومنها كتبه — وهي تأتي في هذا المقام بعد كتاب الله . فكان من الطبيعي أن تناول كتبه — صلى الله عليه وسلم — من الاهتمام حفظاً وتسجيلاً أكثر مما تناول كتب الصحابة ، وكتب معاصريه من غيرهم .
- ٣ — كثير من هذه الكتب كان عهود أمان واقطاعات تنقص على حقوق معينة لأصحابها ، ومن ثم حرصوا على حفظها وتوارثها جيلاً بعد جيل .

* * *

وكتب الآخرين نوعان :

- ١ — كتب إنشائية .
- ٢ — كتب جوابية .

وأعني بالنوع الأول ما كتبه أصحابه ومعاصروه ابتداء دون ارتباطه بكتاب سابق عيه . مثل كتاب خالد بن الوليد إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — يخبره باسلام بنى الحارث — وكان النبي — عليه السلام — قد

بعثه اليهم في العام العاشر يدعوهم إلى الإسلام وفيه يخبره بأذنهم قد أسلموا وأنه « مقيم بين أظهرهم ، يأمرهم بما أمرهم الله به ، وينهياهم عما نهاهم الله عنه ، ويعلمهم معالم الإسلام ، وسنة النبي — صلى الله عليه وسلم — . . . »^(١٠٧)

ومن كتب غير المسلمين كتاب مسليمة الكذاب إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — في أواخر العام العاشر الهجري ونصه :

« من مسليمة رسول الله إلى محمد رسول الله :
سلام عليك ، أما بعد فاني قد أشركت في الأمر وإن لنا نصف الأرض ، ولكن قريشاً قد يعتدون »^(١٠٨)

ومن هذه الكتب عهود مثل عهد العلاء بن الحضرمي لأهل البحرين^(١٠٩) . وهو عهد موجز مباشر يبرز شروط الصلح ومنها مقاسمتهم التمر ودفع الجزية ديناراً في العام من كل حالم .

أما الكتب الجوابية فهي ما كانت ردًا على رسائل سابقة ، ولم تخشا ابتداء : كالرسائل التي كانت ردوداً على كتب للنبي عليه السلام مثل رد كل من النجاشي والمقوقس والمنذر بن ساوي وهودة بن على .

* * *

وبعد أن سرنا هذا الشوط مع الرسائل في عهد النبوة المحمدية ، وقد استغرقت رسائل النبي — عليه السلام — أغلب هذه المسيرة التي كان هدفها الدراسة الموضوعية لهذه الرسائل ، والوقوف مع مضامينها وقيمها ، وما أحاط بآنسائهما من ظروف . . . بعد هذه المسيرة بقى علينا أن نقف وقفه متأنية أمام هذا التراث لنس太后ضمن منه ملامحه الجمالية ومعالجه الفنية .

(١٠٧) انظر نص الكتاب في صبح الأعشى ٤٦٥/٦ .

(١٠٨) البلاذري : فتوح البلدان ٩٧ .

(١٠٩) البلاذري السابق ٨٩ .

الفصل الرابع

الملاحم والسمات الفنية

الفصاحة النبوية : مصادرها وطبعاتها^(١)

جاء عصر صدر الاسلام ليضيف الى المذاييع الأدبية منبعاً غنياً ثريراً هو القرآن الكريم ووقف الجميع أمام هذا المذيع مبهورين :

١ - فهو يمثل قمة البلاغة العربية التي لم يعهد العرب مثلها من قبل ، مع أن لغته هي لغتهم ، وحروف كلماته هي حروف كلماتهم .

٢ - وهو موضوعياً يحمل من القيم والمبادئ ما أحدث أكبر تحول اجتماعي وسياسي وخلقى في تاريخ البشرية .

٣ - وأهم دواعي الانبهار والدهشة ان الذى أتى بهذا الكتاب رجل أمن لا يقرأ ولا يكتب ، وهذا في ذاته أقطع الأدلة على أن القرآن من عند الله ، وأنه ليس بقول بشر .

وكانت البلاغة القرآنية بسحرها البياني تتسلل الى القلوب فتشعر بها الى الإيمان ، وتخرجها من الظلمات والشك الى النور والحق واليقين^(٢) .

(١) عرضنا للسمات والملامح الفنية لأسلوب الرسائل يعني تقييم أسلوب هذه الرسائل في عصر النبوة .. وقد رأينا في الفصول السابقة انه كان هناك رسائل للنبي صلى الله عليه وسلم - وغيره .. ولكن أغلب هذه الرسائل أو ما نقل اليانا منها كان للرسول - عليه السلام - لأسباب ذكرناها من قبل .

لذلك سيكون حديثنا في هذا الفصل يعتمد على النظر في خصائص أسلوب « الرسائل النبوية »، بصفة أساسية .. ولكن ذلك لا يعني اغفال خصائص رسائل الآخرين لأن بحثنا عن « الرسائل في عصر النبوة » لا رسائل النبوة ..

(٢) اقرا في ذلك تزويتين مختلفتين عن اسلام عمر بن الخطاب ، وكلتاها تلتقيان في أن العامل الأساسى في جنبه الى الاسلام هو قراءته بعض آيات من القرآن الكريم او استماعه لها .. [السيرة النبوية لابن حشام ١/٣٣٧ - ٣٣٢] .

ومن الطبيعي أن يكون أول المؤثرين بالبيان القرآني هو حامل الرسالة محمد بن عبد الله — عليه السلام — فاستقى من هذا المعين الكريم ، وجرت الكلمات القرآنية على لسانه ، وجاءت البلاغة النبوية في المرتبة الثانية من البلاغة القرآنية ، ولكن أغرب الأشياء — كما يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعى : إنك اذا قرنت كلمة من البلاغة النبوية الى مثلها مما في القرآن الكريم . رأيت الفرق بينهما في ظاهره كالفرق بين المعجزة وغير المعجز سواء^(٣) .

ومما رأه العلماء في أسباب فصاحة محمد — صلى الله عليه وسلم — انه كان قريشاً هاشمياً ، وقريش من أفضح قبائل العرب ، وبلفتها نظمت المعلقات ، وعلى لسانها دار حديث الشعراء في عكاظ .

واضافة الى هذه الفصاحة الموروثة ترشف محمد فصاحة أخرى في بنى سعد موطن رضاعته وفي بنى زهرة موطن أخواله ، وفي بنى أسد أهل زوجته السيدة خديجة ، وفي بنى عمرو — وهم الأوس والخزرج موطن مهاجرته الى المدينة المنورة^(٤) .

ومن مصادر فصاحته وأسبابها المهمة « قوة الفطرة »^(٥) وقد كانت هذه الفطرة — كما وصفها الرافعى — توفيقاً من الله وتوقيفاً ، اذ ابتعثه للعرب وهم قوم يقادون من السنن لهم ، ولهم المقامات الشهيرة في البيان والفصاحة ، ثم هم مختلفون في ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم ... فمنهم النصيحة والأفضح ، ومنهم الجاف والمضرط ... فكان — صلى الله عليه وسلم — يعلم ذلك على حقه ، كأنما تكشفه أوضاع اللغة بأسرارها ، وتبادره بحقائقها ، يخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم ، ثم لا يكون الا

(٣) مصطفى صادق الرافعى : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٣٦ .

(٤) د. بكرى شيخ أمين : أدب الحديث النبوى ١٠٢ .

(٥) انظر السابق نفس الصفحة .

أفحصهم خطابا ، وأسدhem لفظا ، وأبينهم عباره^(١) . . . وقد فضلهم
بقوه الفطرة واستمرارها وتمكذها ، مع صفاء الحس ونفاد البصيرة
واستقامة الأمر كله^(٢) .

وإذا كان القرآن يمثل « القمة البينية » بطلاق ، فإن السنة النبوية
تمثل قمة البيان البشري على الرغم من أمية أصحابها^(٣) حتى أنك اذا فرنت
كلمة من البلاغة النبوية الى مثلاها مما في القرآن ، رأيت الفرق بينهما في
ظهوره كالفرق بين المعجز وغير المعجز سواء ، ورأيت كلامه — صلى الله
عليه وسلم — في تلك الحال خاصة مما يطبع في مثله ، وأحسست أن بين
نفسك وبينه صلة نطوع لك القدرة عليه ، وتمد لك أسباب المطمئنة
فيه ، بخلاف ان القرآن ، فانك تستيقظ من جملته ، ولا ترى لنفسك اليه طريقا
البيتة ، اذ لا تحس منه نفسا انسانية ، ولا اثرا من آثار هذه النفس ،
ولا حالة من حالاتها حتى تأنس الى ذلك على التوهم ، ثم تتوجه الطمع
والمعارضة من هذه الأنثى ، فتمضى عزما ، وتقطع برأيك ، وتبت القول
فيه — كما يكون لك في قراءة الكلام الانساني ، فإن جميع هذا الكلام
الأدمى منهاج ، ونجملته طريق ، وحدود البلاغة التي تفصل بعضه عن
بعض ، كلها مما يوقف عليه بالحس والعيان ، ويقدر فرق ما بين بعضها
إلى بعض مما بلغ من تفاوتها واختلافها في السبك والصنعة والغرابة^(٤) .

وقد وصف الجاحظ بيان الرسول — صلى الله عليه وسلم —
وصفا جاما اشتهر على مدار التاريخ فقال « هو الكلام الذي قل عدد
حروفه ، وكثير عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونذر عن التكلف ، وكان
— كما قال الله تبارك وتعالى — قل يا محمد وما أنا من المتكلفين . فكيف

(٦) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣١٥ .

(٧) السابق ٣١٧ .

(٨) جابر قميحة : أدب الخلفاء الراشدين ١٢ .

(٩) الراافي : السابق ٣٦٦ .

وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التغافر ، واستعمل المبسוט في موضع البسط ، والمحصور في موضع التصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغم عن الهجين السوقى ، فلم ينطق الا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بال توفيق . وهذا الكلام الذى ألقى الله الحبة عليه وغشاه بالقبول ، وجمع له بين الماهبة والحلابة وبين حسن الانفهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن اعادته ، وقلة حاجة السامع الى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ولا بارت له حجة . ولم يتم له خصم ، ولا أنهمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطول بالكلام القصير ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتاج الا بالصدق ، ولا يطلب الفرج الا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطئ ولا يعجل ، ولا يسهب ، ولا يحصر . ثم لم يسمع الناس بكلام نفعا ولا أصدق لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح عن معناه ولا أبين في فحواه من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم^(١) .

* * *

هذه هي الفصاحة النبوية ، وذلك هو البيان المحمدى بصنفة عامة سواء اكان خطابة أم كتابة ، وهو الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه . والبلاغة النبوية ومظاهرها في خطب الرسول وكتبه وحديثه مقام أكبر من حدود بحثنا . لكن كان لابد من التعرف على حدود البلاغة النبوية ومصادرها بشكل اجمالى . ثم بعد ذلك نرى أبعاد كل ذلك ومدى توفره في رسائله ، عاطفين كذلك على « رسائل الآخرين » في لاعصر النبوى بقدر ما نقل التاريخلينا .

(١) البيان والتبيين ٨/٢

منهج الرسالة النبوية

هل كان للنبي — صلى الله عليه وسلم — منهج خاص فيما يتعلق بشكل كتبه ورسائله ، أو بتعبير آخر أكان له ما يمكن أن نسميه « تقاليد كتابية » في طريقة بدء الرسالة وانهائها ونوعية العبارات المستخدمة في مخاطبة الآخرين وصورة الاشهاد ... الخ وسنحاول في السطور الآتية الاجابة عن هذا السؤال . وباستقراء كتب الرسول ورسائله وعهوده نلاحظ فيها — من الناحية الشكلية والمنهجية المعاالم الآتية :

١ - افتتاح الرسالة بالبسمة :

نقل بعضهم عن الشعبي أن النبي — صلى الله عليه وسلم — كان يفتح كتبه بعبارة باسمك اللهم . ثم نزل قول تعالى « بسم الله مograha ورساها »^(١) فكان الافتتاح « باسم الله ما شاء الله » ثم نزلت « قل أدعوا الله أو ادعوا الرحمن »^(٢) فكتب « باسم الله الرحمن » فجرت بذلك ما شاء الله . ثم نزلت « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم »^(٣) .

وهذا يعني أن افتتاح رسائل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من بالراحل الآتية :

(١) باسمك اللهم . وهى العبارة التى كانت سائدة في الجاهلية .

(ب) باسم الله ما شاء الله .

(ج) باسم الله الرحمن .

(د) بسم الله الرحمن الرحيم .

(١) صود ٤١ (مكية) .

(٢) الاسراء ١١٠ .

(٣) النمل ٣٠ . انظر الكتابى التراتيب الادارية ١٤٠/١ .

والمراحل الثلاث الأخيرة التي يمكن أن نسميتها مراحل إسلامية ارتبطت بنزل آيات قرآنية كانت هي السبب في انتقال النبي – صلى الله عليه وسلم – من افتتاح إلى آخر حتى استقر الأمر على بسم الله الرحمن الرحيم .

وهو كلام ظاهر الافتتاح – من وجهة نظرنا – لأسباب متعددة :

أولها : أن هذه الآيات كلها مكية .. وارتباط تطور الافتتاح بها يعني أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كتب عدداً كبيراً من الرسائل قبل الهجرة لأن مفهوم الرواية يعني أن كل «افتتاح» يمثل مرحلة اطردت فيها الكتابة على هذا النحو . وهذا ما لم يقل به أحد . فالبداية الحقيقة لكتاب الرسائل كانت بعد الهجرة وربما سبق ذلك رسالة أو رسالتان منها عهد النبي لسراقة بن مالك بسواري كسرى . ولم يرو بنصه ، والثانية بعث بها النبي إلى مصعب بن عمير مبعوث النبي إلى المدينة يطلب منه إقامة صلاة الجمعة بال المسلمين^(١٤) .

زانيها : أن البسمة كانت معروفة للنبي – صلى الله عليه وسلم – وللمسلمين قبل نزول هذه السور كلها وإن اختلف بشأنها على ثلاثة أقوال هي :

(أ) أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها وهو قول مالك .

(ب) أنها آية من كل سورة ، وهو قول عبد الله بن المبارك .

(ج) أنها آية من سورة الفاتحة فقط وهو قول الشافعى وينقل عنه قول آخر وهو أنها آية من كل سورة^(١٥) .

(١٤) حميد الله : مجموعة الوثائق ٣٥ . وهي الرسالة الوحيدة التي أتى بنصها قبل الهجرة وإن كان قد أشار إلى عهد النبي لسراقة وذكر أن الكتاب لم يرد له نص .

(١٥) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٨١/١ وانظر سيد قطب في ظلال القرآن ٢١/١ .

والقول الأول — قول الامام مالك — ليس عليه دليل . والخلاف يكاد ينحصر في الرأي الأول والثاني . فلو أخذنا بالقول الثاني وأنها آية من كل سورة لكان هذا يعني أن المسلمين يعرفون البسمة من أول ظهور الإسلام أي من ابتداء نزول القرآن بسورة العلق . وعلى الرأي الثاني وهو أن البسمة آية في أول الفاتحة فقط يترتب عليه أيضاً معرفة البسمة قبل الآيات السابقة التي وردت في هود والاسراء والنمل لأن سورة الفاتحة سبقت في النزول هذه السور كلها باتفاق^(١٦) .

ويكاد يطرد البدء بالبسمة في أغلب كتب الرسول — صلى الله عليه وسلم — وعهوده ورسائله إلى أصحابه وغيرهم من المشركين واليهود والملوك لا أقل القليل من هذه الكتب ككتابه إلى أبي سفيان رداً على كتابه إليه أيام الخنق^(١٧) وربما سقطت البسمة من الكتاب أو محظى بفعل الزمن .

والخلاصة أن البسمة تكاد تكون سمة فارقة في رسائل النبي — صلى الله عليه وسلم — في هذا العهد ولم يرد عنه في روایة صحيحة أى استهله واحداً من كتبه بعبارة «باسمك اللهم»^(١٨) كما لم يرو عنه أنه استهله كتبه بجزء من البسمة مثل باسم الله ، أو باسم الرحمن أو باسم الله الرحمن « وإنما البسمة كاملة أو محذوفة برمتها »^(١٩) .

* * *

(١٦) فسورة الفاتحة هي رابعة السور الكبيرة نزولاً بعد المدح والزمثل والعلق على الترتيب .

(١٧) سجّلنا نص الكتابين في المختارات بآخر الكتاب .

(١٨) ولا يرد على ذلك بما حديث يوم الحديبية واستهلال العهد بهذه العبارة ، فذلك ظرف خاص وهو لا ينبعق القاعدة . وقول النبي — عليه السلام — ذلك يدل على مرورة وبعد نظر كما عرفنا من نتائج هذه المعاهدة في الفصل السابق .

(١٩) د. نصار : نشأة الكتابة الفنية ٣٨ .

هذا عن استهلال النبي — صلى الله عليه وسلم — كتبه بالبسملة
أما المشركون في عهده فكانوا يستهلون كتبهم بعبارة باسمك اللهم كما نرى
في كتاب أبي سفيان إلى النبي في أيام الخندق « باسمك اللهم . فاني أحلف
باللات والعزى ٠٠٠٠ ٠ ٠ »

ويظير أنه كان تقليداً متبعاً في كتب الجاهليين ومعاهداتهم يدل على
ذلك أصرار سهيل بن عمرو على أن يستهل صلح الحديبية بها بدلاً من
« بسم الله الرحمن الرحيم » .

وبعض الكتب التي نقلتلينا من انعمر الجاهلي فيها هذا الاستهلال
« باسمك اللهم » كما نرى في كتاب عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين وهو
ما يسمى بصحيفه الملتمس يأمره فيها بقتله^(٢٠) ، وكتاب التحالف بين
عبد المطلب بن هاشم وبين خزاعة^(٢١) ولكن بعض الكتب المنقوله لنا في
الجاهلية لم تلتزم هذا الافتتاح .

٢ - ذكر طرق الكتاب :

وهي لازمة من لوازم الكتب جمياً تستوى في ذلك كل ألوان الكتب
على اختلاف موضوعاتها وأطراها :

(أ) ففي المعاهدات وكتب الصلح : « هذا كتاب من محمد النبي بين
المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ». هذا ما صلح
عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو » .

(٢٠) جمهورة رسائل العرب ١٢/١ .

(٢١) السابق ٢٥/١ .

وقد نقل صاحب لجمهرة قصة خرافية طريفة . عن بعض المصادر القديمة في سبب
التزام العرب عبارة باسمك اللهم (هامش ١٣) .

(ب) في كتب الاقطاع والأمان : « هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله تلداريين ». « هذا كتاب من محمد رسول الله لبني صخرة بأنهم آمنون » .

وفي كتبه إلى الملوك والحكام والعمال : « من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم » .

ونسجل في هذا المقام ملاحظتين :

الأولى : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - يذكر اسمه دائمًا قبل أطرف الآخر .

والثانية : أنه يذكر دائمًا اسمه بوصف الرسالة أو النبوة « من محمد رسول الله » - « من محمد نبي الله » ونادرًا ما جمع بين وصف النبوة والرسالة كما نرى في رده على خالد بن الوليد « من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد » (٢٢) .

أما الكتب الموجهة إليه - عليه الصلة والسلام - فهي بالنظر إلى إطارها أنواع :

فمنها ما لا يذكر الطرفين ككتاب أبي سفيان إليه . ورد المذذر بن ساوي على كتابه . وزد هسوة على كتابه الذي يدعوه فيه إلى الإسلام .

ومنها ما يذكر الطرفين ويؤخر اسم الرسول - عليه السلام - ويقدم نفسه عليه تبجحاً وسوء أدب ككتاب مسليمة الكذاب إليه بعد ردته (٢٣) .

(٢٢) أذكر القارئ أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكتب اسمه مجرداً « محمد ابن عبد الله » إلا مرة واحدة وكان ذلك في صلح الحبيبية . وقد شرحتنا في الفصل السابق تعلييل ذلك وتفاصيل ما حدث في هذا اليوم .

(٢٣) ذكرنا الكتاب في المختارات .

ومنها ما يذكر الطرفين ويقدم رسول الله (الرسول عليه) على نفسه ويكون هؤلاء غالباً من المسلمين ككتاب خالد عليه « لحمد النبي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من خالد بن الوليد » — ورد النجاشي عليه « إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبيجر » الخ واضح أن الدافع إلى ذلك هو تمجيل مقام النبي وتعظيم مقام النبوة فيه .

٣ — التحية بالسلام :

كانت التحية بالسلام لازمة من لوازم رسائل النبي — صلى الله عليه وسلم — المعمودة إلى الآخرين دون غيرها من الكتب والمعهود . ونلاحظ أن التحية بالسلام ترد ترتيباً بعد البسمة وذكر طرف الرسالة أو أطرافها .. ولكنها لم تأخذ صورة واحدة .. بل تععددت صورها تتبعاً لشخصية من ترسل إليه الرسالة على النحو التالي :

(أ) فإذا كان من أرسلت إليه الرسالة مسلماً استعملت عبارة سلام عليك . وغالباً ما ترتبط عبارة السلام بـ « حمد الله كما نرى في رده على خالد بن الوليد وفي كتابه إلى معاذ بن جبل يعزى فيه ابنه » « سلام عليك فاني أحمد اليك الله الذي لا اله إلا هو »

(ب) وإذا كان من ترسل إليه الرسالة غير مسلم فتستخدم عبارة « سلام على من اتبع الهدى » ولا يتلو العبارة ذكر لـ « حمد » ، كما نرى في كتابه إلى المقوس وهرقل . ولكن قد تكون أكثر تفصيلاً كما نرى في كتابه إلى الحارث بن أبي شمر الغساني « سلام على من اتبع الهدى وأمن به وصدق »

أما التعبير الثالث لهذه الفئة فهو « سلم أنت » واستخدمه النبي — صلى الله عليه وسلم — في كتابه للنجاشي .

وقد يقترن بحمد الله كما نرى في كتابه — صلى الله عليه وسلم —
لمنذرين ساوي ملك البحرين « سلم أنت فاني أحمد إليك الله الذي لا اله
الا هو » .

ومما يدل على أن عبارة « سلام عليكم » كان النبي — صلى الله
عليه وسلم — يختص بها المسلمين دون غيرهم . أن بعض هؤلاء المشركين
حينما أجابوه على كتبه اليهم غير العبارة في كتبه التي رد بها على هذه
الردود إلى « سلام عليك » ما نرى في رده على « رد النجاشي » ، ورده
على « رد المنذر بن ساوي » وقد أبدى كل منهما اقتناعه بالاسلام ودخوله
فيه .

(ج) وندر أن نجد من كتبه ما فيه حمد الله دون سلام ككتابه إلى
أكثم بن صيفي^(٢٤) .

(د) وقد تخو الرسالة من السلام ، ولكن هذا يحدث قليلاً كما
نرى في رده على المنذر بن ساوي وكتابه إلى أكيدر دومة بعد
اسلامه .

(ه) وقد تخلو الرسالة من البسمة والحمد لله ، ولا تحمل إلا صلب
الرسالة ولا يكون ذلك إلا فيما يمكن أن نسميه « الرسائل السرية »
ولها طابع العجلة وتشبه « الأوامر العسكرية » في وقتنا
الحاضر . ككتابه الذي سلمه عبد الله بن جحش وأمره إلا يفتح
الكتاب إلا بعد السير إلى مكان معين وفتحه فإذا به « أمر
مباشر » بلا مقدمات إلى عبد الله بن جحش بأن يرصد غير
قريش^(٢٥) .

(٢٤) جمهرة رسائل الغرب ٦٩ . وقد أرسل إليه النبي - صلى الله عليه وسلم -
هذا الكتب يعرض فيه دعوة الاسلام ، فسار إليه ولكنه مات في الطريق .

(٢٥) انظر الكتاب في امتناع الأسماء ٥٦ .

(و) أما الكتب التي كانت ترد من الكفار إلى النبي وأشهرها كتاب أبي سفيان اليه فكانت تخلو تماماً من السلام ، وهذا طبيعي لأنها كانت تعبر عن نفوس حانقة ناقمة حاقدة تتمسك بالشرك والضلال .

٤ - أما بعد :

وكانت تذكر بعد السلام .. وقد وردت كثيراً في كتب الرسول — عليه السلام — وكذلك الأمر في خطبه^(٣) ولكنها لا تطرد في كل كتبه — عليه السلام — فمنها ما لم يذكر فيها (أما بعد) كتابه للحارث بن أبي شمر وكتابه إلى هودة بن علّى .

وبعبارة **اما بعد** كانت ترد كذلك في كتب الجاهلية ، فهي ليست سمة اختصت بها كتب الرسول — عليه السلام — أو كتب أصحابه .

والمطرد في كل الكتب من جاهلية واسلامية سواء أكانت صادرة من النبي — عليه السلام — أو الآخرين أن موضوع الرسالة يرد بعدها مباشرة . وهذا ما نجده في رسائل النبي — عليه السلام — دون استثناء .

٥ - ختام الرسالة :

إذا ما تركنا صدور الرسائل ونظرنا إلى أعيجازها وجدناها أكثر اختلافاً . إذ ينتهي كل منها بحسب موضوعه ، ولكن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان يعتمد بعض الخواتم أحياناً كالسلام مثلاً ، وله عدة صور : السلام العادي إذا كان المكتوب له مسلماً ، أو غير مسلم أحياناً ، وربما دعا له بعد السلام ، فيقول « والسلام ورحمة الله ، يغفر

٣٦) انظر : الكتابي : التراثيب الادارية ١٤١/١

الله لك » . فـإذا كان غير مسلم قال في السلام : « والسلام على من اتبع
الهـدى » أو « والسلام عـلـيـكـمـ انـطـعـتـمـ » . وـكانـ الكـاتـبـ فيـ بعضـ الأـحـاـيـينـ
يـدونـ اـسـمـهـ فيـ خـاتـمـةـ الرـسـالـةـ ،ـ فـيـقـولـ :ـ «ـ وـكـتـبـ فـلـانـ »ـ (٢٧)ـ .ـ

* * *

هـذـاـ هوـ منـهـجـ الرـسـالـةـ ،ـ النـبـوـيـةـ أوـ تـخـطـيـطـهـاـ منـ نـاحـيـةـ الشـكـلـ
بـصـفـةـ عـامـةـ وـنـسـتـطـيـعـ أـنـ نـوجـزـهـ —ـ اـعـتـمـادـاـ عـلـىـ ماـ غـلـبـ عـلـيـهـاـ —ـ فـيـ
الـخطـوـطـ الـآـتـيـةـ :

- ١ - الـبـدـءـ بـالـبـسـمـلـةـ أـوـ الـبـسـمـلـةـ وـ الـحـمـدـ .
- ٢ - ذـكـرـ أـطـرافـ أـوـ طـرـفـ الرـسـالـةـ بـدـءـاـ بـذـكـرـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ مـوـصـفـاـ بـالـرـسـالـةـ أـوـ النـبـوـةـ أـوـ هـمـ مـعـاـ .
- ٣ - مـبـارـأـةـ أـمـاـ بـعـدـ .
- ٤ - صـلـبـ الرـسـالـةـ أـوـ الـمـوـضـوـعـ الـأـسـاسـيـ الـذـىـ كـتـبـتـ مـنـ أـجـلـهـ
الـرـسـالـةـ .
- ٥ - الـخـتـامـ بـالـسـلـامـ ،ـ أـوـ مـاـ دـارـ فـيـ فـلـكـهـ .

(٢٧) حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي . ٣٩

وعـلـيـنـاـ أـنـ نـلـاحـظـ أـنـ التـقـليـدـ الـذـىـ سـارـ عـلـيـهـ النـبـيـ —ـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ —ـ وـخـلـفـأـهـ
الـرـاشـدـونـ فـكـلـ الـمـهـادـنـاتـ وـعـقـودـ الـصـلـحـ أـنـهـاـ كـانـتـ تـشـتـملـ فـيـ نـهاـيـتـهـاـ عـلـىـ أـسـمـاءـ الزـجـالـ
الـذـيـنـ شـهـدـوـهـاـ وـشـهـدـوـاـ عـلـيـهـاـ ،ـ وـهـوـ مـاـ فـعـلـهـ النـبـيـ —ـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ —ـ فـيـ مـهـادـنـهـ
مـعـ الـمـشـرـكـيـنـ مـنـ قـرـيـشـ وـالـيـهـوـدـ وـالـنـصـارـىـ مـنـ أـهـلـ نـجـرـانـ وـغـيرـهـمـ [ـ اـقـرـأـ فـيـ ذـلـكـ كـتـابـ]
الـمـعـاهـدـاتـ وـالـمـهـادـنـاتـ فـيـ تـارـيـخـ الـعـرـبـ لـحـمـدـ عـبـدـ الغـنـىـ حـسـنـ ،ـ وـخـصـوصـاـ الصـفـحـاتـ
مـنـ ٦٧ـ -ـ ٧٣ـ ،ـ]

المضمون بين الرسالة والخطبة

أشرنا من قبل الى أن الرسالة تختلف عن الخطبة من نواح ثلاثة :

الأولى : أن الخطبة — في ذلك العصر وانعصر الجاهلي بصفة خاصة — هي بنت البديهة والارتجال ، وهي بنت ساعتها أو لحظتها بلا اعداد أو تهيئة . أما الرسالة فيسبقها الثنائي ، وتنطلب أعمال العقل ، وقد تقتضي المراجعة والمعاودة^(٢٨) .

والثانية وهي نتيجة للسمة الأولى : أن عنصر الفكر في الرسالة أغلب منه في الخطبة^(٢٩) .

اما الثالثة : فهي أن الرسائل والمعهود المكتوبة أدل وأصدق في التقييم الفكري والفنى من الخطب^(٣٠) ، لأن الخطب نقلت مشافهة ، وتناقلتها الأفواه الى أن سجلت بعد عشرات من السنين ، أما الرسائل والمعهود فهي أبقى وأثبتت على الزمان لأنها وثائق مسجلة مكتوبة^(٣١) .

وإذا ما نظرنا الى خطب النبي — صلى الله عليه وسلم — ورسائله في ضوء عناصر الحكم السابق استطعنا أن نقرر — بصفة عامة — أن خطب الرسول — عليه السلام — أعم بالعناصر التصويرية والفنية من رسائله ويرجع ذلك الى الأسباب الآتية :

(٢٨) وهذا لا ينفي أن هناك من الخطب ما يعد قبل الثنائة ، ومن الرسائل ما فيه طابع العجلة .

(٢٩) الحكم ثائم على الغالب الأعم ، فمن الخطب ما هو أعم بالفكر من كثير من الرسائل مثل الخطب « التشريعية » خطبة النبي في حجة الوداع .

(٣٠) لأن نجل الخطب أسهل من نقل الرسائل في الأغلب الأعم ، ومن ثم تحمل الخطبة ملامح لا تمثل فن من نسبت اليه .

(٣١) انظر جابر قميحة « أدب الخلفاء الراشدين » ٤٥١ - ٤٥٢ .

١ - أن الخطيب يتحدث إلى « الجماهير » ويحرص على التأثير فيهم ، وحرصه على جذب عوطفهم مستميلاً أقوى من حرصه على كسب عقولهم مقتناً ، وأن كانت خطب النبي عليه السلام قد جمعت بين « الاستعمال والاقناع » ، والتصوير والتتمثل من أهم عناصر الاستعمال ، كما أنه عنصر مهم كذلك في الاقناع . وله في خطبه وأحاديثه الآيات البارعات في التشبيه والتتمثل مثل قوله في خطبة القها بعد صلاة العصر : « الا ان الدنيا خضرة حلوة ، الا وأن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا وانقوا النساء ... ». ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس لا حمرة على أطراف السعف فقال : أنه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى » (٣٢) .

اما الرسالة فهي موجهة الى فرد في الغالب ، وأحياناً الى جماعة في شأن محدد معين لا يتسع مجاله — في ذلك الوقت على الأقل — الى ما يتسع ذه مجال الخطبة لاعتبار السياق الذي ذكرناه .

٢ - من ألوان الكتب كالمعاهدات وكتب الفنائم ما يستلزم استعمال الأسلوب التقريري المباشر والكلمات ذات الدلالة الواحدة المحددة بعيداً عن التزيين النباغي والتزويق الفني حتى لا يذهب العقل في تفسير هذه الكتب أو بعض نصوصها مذاهب ، ويفتح ذلك الباب على مصارعيه للخلافات والصراعات والتناقل وشحن النفوس بالعداوة والبغضاء .

ففي مثل هذه الكتب بصفة خاصة لا يعمد إلى تزويق ، إنما يعتمد إلى نكرته ، وتبلیغ دعوة الإسلام ورسالته في غير اسهام وفي غير صنعة أو تكلف (٣٣) .

(٣٢) جمهرة خطب العرب ١٥١/١ ، وهذه الرواية تدل على أن الخطبة استغرقت ساعات ، ولكن ما بين أيدينا سطور منها تعدد على أصابع اليد الواحدة . وهذا دليل أيضاً على أن ما لم يصل اليانا من خطب الرسول - عليه السلام - أضعاف ما بين أيدينا .

(٣٣) د. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي . ٩٨

بين الاطناب والايجاز

وتثور في المباحث البلاغية عند تقييم الأساليب مسألة التفضيل بين الايجاز والاطناب ، فهناك من يرى أن البلاغة ايجاز ، وأن خير الكلام ما قل ودل ، وأن الزيادة في الحد نقصان^(٣٤) .

وهناك من يفضل الاطناب على الايجاز بدعوى أن المنطق « إنما هو بيان ، والبيان لا يكون إلا بالاشباع ، والشفاء لا يكون إلا بالاقناع ، وأفضل الكلام أبينه ، وأبینه أشد احاطة بالمعانى ، ولا يحاط احاطة تامة إلا بالاستقصاء»^(٣٥) .

والواقع أن المفاصلة بين الايجاز والاطناب بهذا الاطلاق في غير محلها ، لأنها تلغى في الموازنة عنصراً مهما جداً هو عنصر «المقام أو المجال أو المناسبة» ونحن نرى في هذه المسألة ما يراه أبي هلال العسكري من أن الايجاز والاطناب يحتاج اليهما في جميع الكلام .. ولكل واحد منها موضع ، فالحاجة إلى الايجاز في موضعه كالحاجة إلى الاطناب في مكانه فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته ، واستعمل الاطناب في موضع الايجاز ، واستعمل الايجاز في موضع الاطناب أخطأ^(٣٦) .

ورسائل النبي - صلى الله عليه وسلم - يغلب عليها الايجاز بصفة عامة اذا قيست بخطبه ، أو بتعبير أدق بما يروى من **أوصاف خطبه** منها الحديث القصير ، ومنها الخطبة التي تستغرق ساعات طوالاً ، وقد نقلنا من قبل ما بقى من خطبة بدأ بها النبي - عليه السلام - بعد العصر واستمرت إلى الأصيل أى إلى ما قبل المغرب .

(٣٤) انظر «كتاب الصناعتين» لأبي هلال العسكري ١٧٣ .

(٣٥) السابق ١٩٠ .

(٣٦) السابق نفس الصفحة .

فالطابع الغالب على الكتب والرسائل هو الايجاز ، وتعليق ذلك واضح ، وهو يتلخص فيما يأتى :

١ — موضوع الرسالة موضوع محدد يضعه صاحب الرسالة نصب عينيه قبل أن يخط أول حرف فيها ، ولم يعرف عهد النبوة ما يمكن أن نسميه بالرسالة المفتوحة التي ينطلق فيها فكر صاحبها بما يشاء ، فمحدودية الغرض الذي من أجله انشئت الرسالة لم يترك مجالا للاتنان والاسباب .

٢ — طبيعة عهد النبوة في ملامحه الدينية والسياسية والاجتماعية والحربية ... كان كل شيء يعتمد على البساطة ... على خطوطه الأساسية ... بلا تفريعات ولا تعرجات ، ولم يكن هناك مجتمعات يحكمها الاسلام خارج الجزيرة العربية مما يقتضي كتابة العهود والكتب الطوال للقادة والولاة^(٣٧) .

٣ — امكانات الكتابة المحدودة في عهد النبوة من قلة عدد الكتاب — بالقياس الى عهد الخلفاء الراشدين — وبدائية الأدوات وصعوبة الكتابة على الأدم (الجلد) والرق ، وهو ما يرقق من الجلد ليكتب فيه^(٣٨) . ومن ثم كان الايجاز يوفر الوقت والجهد ، أو بتعبير آخر كان اعتماداً ضمنياً بامكانات العصر .

هذا هو الطابع العام لكتب النبي — صلى الله عليه وسلم — الجنوح الى الايجاز الدال على الغرض ، المعبر عن المطلوب دون اخلال أو اساءة الى المعنى ، وهو يتمثل — كما يقول العقاد — في اجتماع المعانى الكبير فى الكلمات القصار ، بل اجتماع العلوم الواافية فى بعض كلمات^(٣٩) .

(٣٧) ومن أشهرها عهد على بن أبي طالب للأشتر النخعى حين ولاده على مصر ، والعهد يستغرق صفحات كثيرة ، وربما كان أطول العهود في العصر كله ، وسنعرض لذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله .

(٣٨) انظر الكتابى : الترتيبات الادارية ١٢٢/١ .

(٣٩) عقيرية محمد ٧٧ .

ولكن هذا الطابع الغالب محکوم بسمة أخرى وهي مراعاته — صلى الله عليه وسلم — لطبيعة الفرض الذي ينشأ من أجله الانتساب ، وهو ما عبر عنه الجاحظ بقوله أنه استعمل البساط في موضع البسط ، والقصور في موضع القصر^(٤) .

ومن مراعاته طبيعة الفرض استعماله الاطناب في كتاب « المowادعه » ، الذي كتبه بعد هجرته إلى المدينة من مكة . كان لابد من تحديد العلاقات بين مئات المجتمع انجحيد ، أو بتعبير آخر كان لابد من وضع « دستور عمل ومعاييره » يحدد الحقوق والواجبات ، ويكون مرجعاً للتمييز بين الصواب والخطأ ، والقرآن لم يكن قد نزل من آياته التشريعية شيء ، أو على الأقل كان في أولى الخطوات التشريعية ، ومثل هذا « الدستور » لا يغنى فيه الإيجاز فلابد من الاسهاب والتفصيل والتحديد والتقييم ، وحاء أطول عهد كتبه الرسول — صلى الله عليه وسلم — في حياته .

وهناك عهد آخر لم ينزل حظاً من الاسهاب أو الاطناب وهو « صلح الحديبية » أنه من سطور تعدد على أصابع اليد الواحدة بعدد الشروط المحددة التي تضمنها ... فالمسألة هنا غير المسألة هناك : الأول دستور دائم ، والثاني عهد يرتبط بظرف طارئ كاد يؤدي إلى حرب طاحنة تفاداً لها النبي — صلى الله عليه وسلم — بلباقة وبعد نظر .

واستطاع أن يتحقق بهذا الصلح — على المدى القصير القريب ، وعلى المدى الطويل البعيد كسوياً للعقيدة وال المسلمين ما كان ليتحققها إلا من كان كمحمد نفاذ بصيره وبعد نظر .

ذلك نظام دستوري لا يغنى فيه الإيجاز ، وهذا صلح يكون الاطناب فيه تزيداً وحشواً غير مطلوب . وتشبيهه بكتاب المowادعه بين المسلمين واليهود

• (٤٠) البيان والتبيين ٨/٢

ما كان كتبها تشريعية ومن أشهرها وأطولها كتابه — صنف الله عليه وسلم — في الصدقات وهو الذي احتفظ به أبو بكر ، وبعثت به لأنس بن مالك حين بعثه إلى البحرين عملاً عليها .

ونلاحظ أن من وسائل الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى التفصيل والاطناب التكرار اللغطي ، وهو كثير جداً في كتاب المواجهة مع اليهود ، والتكرار هنا ليس فضلة وحشوا ، ولكنه تحديد دقيق جداً « للمراتز القانونية » للفئات المختلفة وتحديد للعلاقات والحقوق والواجبات وهو تحديد لا يقبل التأويل الغالط والتخرج بعيد ، لأن النبي — صلى الله عليه وسلم — ما كان لتخفي عليه ألاعيب اليهود وغشهم وخداعهم .

ويستخدم الرسول — صلى الله عليه وسلم — لوناً آخر من التكرار هو التكرار المعنى ، وهو يعني الالحاح على الفكرة الواحدة بأسلوب آخر أو أكثر ، وخاصة إذا ما تعلق ذلك بقيمة دينية أو خلقيّة كتوله في كتابه إلى أهل هجر : أما بعد فاني أوصيكم بالله وبأنفسكم لا تتضروا بعد اذا هديتم ولا تغواوا بعد اذا رشدتم .^(٤١)

وَمَا يَأْتِي اطْنَابَهُ فِي مَوْضِعِهِ الْمُنْسَبِ يَأْتِي كَذَلِكَ اِيجَازَهُ وَهُوَ الْقَصْدُ فِي الْاسْلَوبِ وَالتَّعْبِيرِ عَنِ الْمَعْنَى بِأَقْلَلِ عَدْدِ مِنِ الْأَلْفَاظِ خَلْوَصًا إِلَى مَا يَرْمِي إِلَيْهِ مِنْ حَقَائِقٍ ، وَمَا يَنْشَدُهُ مِنْ غَایَاتٍ ، وَمَمْذُوكٌ مِنْ أَهْدَافِ اِيجَازَهُ تَنْزِيهُ النَّفْسِ عَنِ الْلَّجْجِ الْفَارِغِ ، وَالْهَرَاءِ الَّذِي لَا يُلْيقُ بِالْفَصْحَاءِ ، بَلِ الْأَنْبِيَاءِ .

(٤١) فتوح العبدان ٩٠ .

هذا وقد ذكرنا من قبل أنه صلى الله عليه وسلم كان من دأبه أن يذكر في ردوده خلاصة للكتب التي يهدى إليها ، وهذا يعتبر أيضاً لوناً من لون التكرار المعنى في صورة موجزة . وقد ذكرنا من قبل تعليل هذه الظاهرة .

يبعث اليه مسلية بن حبيب بكتابه الذى يدعى فيه أنه يشركه في
الرسالة ، ويشركه في الأرض « ولكن قريشاً قوم لا يعدلون » ، فيأتيه جواب
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سطر أول سطرين « أما بعد فان
الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعقاب للمتدين » .

وحقق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهذا الإيجاز غرضين :
أولهما الترفع عن الخوض في جدل عقيم مع رجل دعى لا هم له إلا الجاه
والسلطان وأبهة الدنيا . وثانيهما تقرير الرد في صورة حقيقة عامة تعتبر
جوهرًا من جواهر العقيدة الإسلامية ، وهي أن « الأرض لله يورثها من
يشاء » .

ومن مراعاته - صلى الله عليه وسلم - لطبيعة الأحوال والمقتضيات
وموقف الشخص الذي يراسله . أن بعض كتبه يكون مكتفياً في كلمات
قلائل جداً ، وهي في ذلك تشبه إلى حد بعيد « البرقيات » في مجتمعاتنا
الحاضرة . فقد عرفنا أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بقى بمكة
يكتب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبار المشركين ، ولكنه اشتاق
أن يقدم على رسول الله ويترك مكة فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « ان مقامك بمكة خير » (٤٢) . وهذه الرسالة - كما هو ظاهر
لم تنهج النهج المتبع في الرسائل النبوية ، من بدء بالبسملة والحمدلة وذكر
الرسول ومن أرسلت إليه الرسالة .. وما أرى ذلك إلا للايحاء بضرورة
سرعة التنفيذ من ناحية ، وحرصاً على سلامة حامل الرسالة وسلامة
العباس إذا ما وقعت هذه الرسالة في يد قريش ، وفوق كل ذلك حرصاً على
بقاء السر سراً واستمرار انتشار الدوحة بجهود العباس - رضي الله عنه -
في كشف ما تدبره قريش وما تعمد له لضرب المسلمين .

(٤٢) حميد الله : مجموعة الوثائق ٥٢ .

ويرد في كتبه — صلى الله عليه وسلم — ما يسمى عند البلاغيين بـ *بايجاز* الحذف ، وهذا النوع من الـ *ايجاز* يحتاج إلى الحس البلاغي المرهف من المنشء والمتلقى ، ومن نماذجه ما جاء في نهاية رسالته لـ *معاذ بن جبل* يعزيه في ابنه « . . . فاحسن الجزاء ، وتنجز الموعود ، ولزيذهب أسفك ما هو نازل بك ، فكان قد »^(٣) .

ال مقابل والتضاد

ويرد في تضاعيف رسائله — عليه السلام — مقابلات أسلوبية . . . ترد بصورة طبيعية دون تكلف أو تصيد ، والهدف من ذلك هو بيان الفرق الشاسع بين الطرفين ، حتى يزدادا وضوحاً وبياناً . ويكثر ذلك في كتب الدعوة بصفة خاصة ، وفي مجالات الترغيب والترهيب بصفة أخص . وترتبط المقابلات في هذه الكتب بالطلب وجوابه أو الطلب وبيان نتيجته ، وفي ذلك استمالة شعورية ، كما أنه محاولة لاقناع المرسل إليه بقبول الدعوة . يقول عليه السلام في كتابه لـ *هرقل* « . . . أسلم ، تسلم يؤتوك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك أثمن الأربيسين . . . » .

وفي رواية أخرى لكتاب المقوس « وقد دعونك إلى الإقرار بـ *بودانيته* ، فإن فعلت سعدت ، وإن أبيت شقيت »^(٤) .

هذا وقد ترد في أسلوبه — عليه السلام — ألوان أخرى من البديع كالجنس والازدواج ، ولكنها كما قلت تأتي عفو الخاطر بعيدة عن التكلف والتصيد .

(٤٣) أي فكان قد نزل بك الموت لأنك مدرك لا محالة .

(٤٤) صبح الأعشى ٣٧٨/٦

السهولة والوضوح

يقول الامام عبد القاهر الجرجانى : والمعقد من الشعر والكلام لم يدم لأنّه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة ، بل لأن صاحبه يعثر فلكرك في متصرفه^(٤٥) ، ويسيّك طريقك إلى المعنى^(٤٦) ، ويوعر مذهبك نحوه ، بل ربما قسم فكرك ، وشعب ظنك ، حتى لا تدرى من أين تتوصّل ، وكيف تطلب^(٤٧) .

فالتعقّيد له سوأتان ظاهرتان : الأولى وضع العقبات والعرقلات أمام القارئ أو السامع تحول بينه وبين الوصول إلى المعنى وأدراك المضمون . والثانية تشعيّب الفكر وتتشتّته واهدار طاقته في التخمينات والظنون والتقدّيرات .

لذلك تجذب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الغريب الحوشى من الكلام ، والكلمات الحوشية أو الممانعة هي الركيزة الأولى من ركائز التعقّيد ، وهي بذلك تفلق المعنى على من شئه فكانه قد كتب أو قال لنفسه لا لكي يقرأه أو يسمعه الآخرون . وسمة السهولة والوضوح أن احتاجها الأديب أو الشاعر فالرسول إليها أحوج ، حتى يستطيع أن يلتج نفوس الآخرين ويصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً به .

وكان العقاد على حق حين وصف أسلوب النبي — صلى الله عليه وسلم — بأنه أسلوب عصرى يصلح أن يقتدى به المعاصرون في زماننا هذا وفي كل زمان ، لأنّ الأسلوب الذي يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصرى في جميع العصور^(٤٨) .

(٤٥) عثرة واعثره جعله يعثر .

(٤٦) يسيّك طريقك : يجعله مليئاً بالشوّك .

(٤٧) عبد القاهر الجرجانى أسرار البلاغة ١٢٥ .

(٤٨) عبطية محمد ٧٦ .

ولكن قد يقال فما بال ما نجده من غريب حوشى في بعض كتبه ، ككتابه إلى أهل حضرموت^(٤٩) وفيه يقول :

« **الى الأقىال العباھلة**^(٥٠) ، **والأرواع المشابيب**^(٥١) ، في **التبيعة**^(٥٢) شاة ، **لامقرة الآلياط**^(٥٣) ولا **ضناك**^(٥٤) ، **وانطوا الثبجة**^(٥٥) ، وفي **السيوب**^(٥٦) **الخمس** ، ومن زنى مم بكر^(٥٧) فاصفعوه^(٥٨) مائة واستوفضوه^(٥٩) عاماً ، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاهيم^(٦٠) ، ولا توصيم^(٦١) في الدين ، ولا غمة في فرائض الله تعالى^(٦٢) ، وكل مسکر حرام . ووائل ابن حجر يترقب^(٦٣) على الأقىال » .

ولكن مثل هذا الأسلوب لا يمثل أسلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم — أي أسلوبه العام الذي يتحدث به في خطبه ويسجله في كتبه ، ومن ثم لا يجوز لنا أن نعمم الحكم فنجعل مثل ذلك سمة من سماته المطردة ، ولكن الأمر أنه — عليه الصلاة والسلام « علم السنة العرب ،

(٤٩) الشنا ٥٩/١

(٥٠) الأقىال : جمع قيل وهو الملك أو الوزير الحميري . العباھلة : الثابتون . جمع عبھل .

(٥١) الأرواع : جمع أروع وهو الرائع الذي يعجب الآخرين . والمشابيب : السادة : جمع مشبوب .

(٥٢) التبيعة : أدنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان كالأربعين من الغنم .

(٥٣) مقورة الآلياط : مرخية الجلد أي هزيلة .

(٥٤) ضناك : ضخمة سمينة .

(٥٥) اعطوا الوسط من المال دون افراط أو تفريط .

(٥٦) السيوف : جمع سيف : وهو الركاز .

(٥٧) من الأبكار : أشرف الأشراف .

(٥٨) اضريبوه .

(٥٩) انفوه وغريبوه .

(٦٠) الأضاهيم : الحجارة أي ارجموه بالحجارة واسيلوا دمهم .

(٦١) فنور وتنصير .

(٦٢) الغمة : الستر . أي اجهروا بأوامر الله وفرائضه .

(٦٣) يرأس ويتأمر .

يُخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يستلونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه . وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد كلامه مع ذى المشغار الهمداني وطهفة النهدي وقطن بن حارثة العليمي والأشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندي وغيرهم من أقىال حضرموت وملوك اليمن^(٤) .

فحن ولا شك أمام غريب حoshi لا يفهم أصحاب النبي — صلى الله عليه وسلم — منه الا أقل القليل ، ولكنه ليس سمة أسلوبية مطردة ، إنما هو سمة « أسلوب خاص » لقوم لا يفهمون غيره ، وذلك ملجم من ملامح البلاغة التي حددها هو « مراعاة مقتضى الحال » ، ولو خاطبهم النبي بغير لسانهم لكان في ذلك مجافاة للبلاغة لأن الحصيلة التي يخرجون بها ستكون ضئيلة ، بل قد تكون معذومة . وذلك ينافي سمة الغالبة على أسلوب النبي ... وهي سمة الابلاغ^(٥) أو « البلاغ المبين » وأصدق ما يقال في تعريفها ما قيل في تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة : أقرب موصل بين نقطتين . فليس أقرب من أسلوب النبي عليه السلام — في ابلاغ الغرض منه .

لا كلفة اذن — ولا غموض ولا اغراط ، وقلة الغريب — بل ندرته — في كلام النبي — صلى الله عليه وسلم — أجدر الأمور باللحظة في اقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية ..

محمد العربي القرشى الناشئ فى بنى سعد العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوقت لهجة قبيلة ناثية فى أطراف الجزيرة ، لم يكن فى كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه الى مراجعة ... وسر ذلك أنه يزيد

٤) الشفنا ٥٨/١ .

٥) عبقرية محمد ٦٩ .

أن يبلغ أو يريد أن يصل إلى سامعه ، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزاً من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب ، ومن ذلك ما روى عنه عليه السلام أنه كان يعيد الكلمة ثلاثة لتعقل عنه ، وأنه كان يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال : « إن الله تعالى يبغض البلوغ من الرجال الذي يختال بلسانه تخلل الباقرة بلسانها » (٦٦) .

وإذا كان — عليه السلام — قد راعى « مقتضى الحال » في ايثار لهجة القوم على لهجة قريش ، فخاطبهم بلسانهم ، فإنه راعى مقتضى الحال في الأمثلة المضروبة ، ففي كتابه للنجاشي يسوق رأي الاسلام في طبيعة السيد المسيح — عليه السلام — وكيف يبجله المسلمين ويجلونه ، فالرجل نصراني والذي يشده إلى شخصية المرسل ويقربه نفسياً منه ، اشعاره بأنه — ان أسلم — فقد ذهب إلى دين ان يكن أوفي وأشمل فإنه لم يكفر بدينه ورسوله لأن اجلال المسيح والایمان به مبدأ من مبادئ الدين الاسلامي ، وما آمن به محمد من كفر بالمسيح عليهم السلام . وحينما يكتب إلى خيبر — وهم يهود ضالعون في اليهودية — يكون الحديث عن موسى والایمان به هو المثل الفرد الصالح لهذا المقام . وتلك هي البلاغة الحقيقة التي سارت مثلاً يحتذى ، وقدوة لمن يطلبون النماذج العليا في الأساليب العربية .

التدفق والترسل

ويقصد بهذه السمة أن يجري الكلام في يسر ، ويصدر عن طبيع لغوي سليم بعيداً عن التكلف والتصيد بحيث يكون تزيين الأسلوب بضرور الصناعة أمراً مقصوداً لذاته وخصوصاً السجع . وقد أنكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مثل هذا الأسلوب المثقل بالسجع ، غيروى أن رجلاً جاءه وقال « يا رسول الله ، أرأيت من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح

(٦٦) عبقرية محمد ٧٣ .

فاستهل ، أليس مثل ذلك بطل « فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
مستنكرًا « اسجع كسجع الجاهلية » ؟

وأمام هذا الحديث ذهب النقاد القدامى مذاهب شتى : فمنهم
من قال « لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الاقامة لهذا الوزن لما كان عليه
أسئل ، ولكته عسى أن يكون أراد ابطالا لحق فتشادق في كلامه » وهذا
التخريج يعني أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — استنكر « موضوعا »
أو مسلكا معينا ارتبط به هذا الكلام .

ومن قائل وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — واستحسنه وأمر به شعراء ، وعامة أصحاب
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد قالوا شعوا قليلا كان ذلك أم
كثيرا ، وسمعوا واستنشدوا ، فالسجع والمدوج دون القصيد والرجز ، فكيف
بحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل ؟

وكان أحسن ما يدا هو قول من ذهب إلى أن السجع يكون جيدا
مقبولا « اذا لم يطل ، ولم تكن قوافيء مطلوبة مجتبية ، او ملتمسة
متكلفة »^(٦٧) .

ويقول الجاحظ « ولكن الذى كره الأسجاع بعينها — وإن كانت دون
الشعر في التكلف والصنعة أن كهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية
يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدعون الكهانة ، وأن مع كل واحد منهم رئيا من
الجن ، كانوا يتکهنون ، ويحكمون بالأسجاع ... فوقع النهى (عن
السجع) لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها فيهم ، فلما زالت العلة زال
التحريم »^(٦٨) .

(٦٧) البيان والبيانين ١٥٨/١ .

(٦٨) السابق ١٥٩/١ .

ونحن نرى أن استئثار النبى للسجع فى المثال السابق وما شابهه
يرجع إلى سببين :

الأول : سبب عقدى : وهو ارتباط هذا السجع ذى الجملة
القصيرة السريعة الحادة بالكهانة الجاهلية التى ترتكز على عقيدة فاسدة
خاسرة .

الثانى : سبب أدبى ذوقى : فقد كان النبى - عليه السلام -
نموذجاً للفصيح البليغ الذى يتسم قمة البيان الانسانى . ومثل هذا السجع
على ما فيه من تكليف - يتمتع بتفاهة المضمون ، وغثاثة المعنى .

فالسجع ليس مرغوباً لذاته ، اذما هو في ذلك كالشعر « حسنة
حسن ، وقبحة قبيح » كما يقول حجة الاسلام أبو حامد الغزالى^(١) . وقد
كان الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ف تكونون في تلك الخطب أسباع كثيرة
فلم ينهاوا منهم أحداً^(٢) .

* * *

والترسل - كما قلنا من قبل - سمة غالبة على بيان رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - خطباً وأحاديث وكتباً ، وما افتغل قط ولا تكفل ،
ولكن كلامه لم يخل من سجعات قليلة ترد عفو الخاطر ، وتوضع في
سياق كلامه ، فيحس القارئ كأنها لم تخلق الا لهذا السياق ، وأن السياق
بع غيرها لا يكون بياناً بليغاً . ومن نماذجه ما جاء في كتابه إلى المنذر بن
ساوى ملك البحرين « فان من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا ،
فذلك المسلم ... »

(٦٩) احياء علوم الدين ١٥٦٩/٩ .

(٧٠) البيان والتبيين ١٥٩/١ .

وفي كتابه الى ابني الجلندي ملكى عمان^(٧١) يقول « ۰۰۰ وان أبيتما
أن تقرأ بالاسلام ، فان ملککما زائل عنکما ، وخیلى تحل بساحتکما ، وتنظر
نبوتی على ملککما » .

فسجعه العفوی هذا يأتي في كلامه حلية لها قيمتها ، « ومذهبہ
في هذه الحلية اللطيفة مذهبہ في كل حلية تليق بالرجل : فتحوله في القول ،
وفتحوله في الزينة ، نسجعه عليه السلام حلية الذهب التي يليق بالرجل أن
يتخلی بها ولا مزيد »^(٧٢) .

ويقال ان أبا سفيان كتب للنبي عليه السلام كتابا يهدده وال المسلمين
فيه .. يقول في آخره « نريد منك نصف نخل المدينة ، فان أجبتنا الى ذلك ،
والا أبشر بخراب الديار ، وقلع الآثار » .

فأجابه النبي بكتاب جاء فيه « وصل كتاب أهل الشرك والنفاق ،
والكفر والشقاق ، وفهمت مقالتكم ، فوالله مالكم عندى جواب الا أطراف
الرماح ، وأشفار الصفاح ، فمارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وأبشروا
بضرب الحسام ، وبفلق الهام ، وخراب الديار ، وقلع الآثار » .

ويعلق العقاد على هذه الرواية التي أوردها في كتابه « عبرية
محمد » بقوله « فهذا السجع في هذا المقام أصلح لخطاب الجاهلين ،
لأنهم يعرفون منه معنى التوثيق والتمكين ، كما يعرفون منه المناجزة والتخويف
ومن هنا أفتر النبي - عليه السلام - نص الحلف الذي كان بين جده
وخزاعة على ما كان به من سجع وتفخيم يجعلونهما موئلا تعقد به المواثيق ،
وتوّكّد به الهرمات »^(٧٣) .

٧١) صبح الأعشى ٢٨٠/٦ .

٧٢) عبرية محمد ٧٤ .

٧٣) عبرية محمد ٧٥ .

وحكم العقاد هذا فيه نظر :

١ — فما كان النبي — صلى الله عليه وسلم — ليجاري الجاهلين في أسلوبهم عن قصد ، ولا يمكن أن توحى هذه المجازة « بالتوثيق والتمكين والمناجزة والتخييف » بل ربما كانت « المغایرة » الأسلوبية أدل على ذلك .

٢ — والكتاب أبعد ما يكون عن طبيعة كتب النبي — عليه السلام — أسلوباً ومضموناً ، فالسجع فيه — كما هو ظاهر — مقصود لذاته ، وهذا ما ترفع عنه النبي ، وأنكره على رجل نطق بمثل هذا في القصة التي رواها الحافظ . وما كان النبي عليه السلام ليهدد بخراب الديار ، وقلع الآثار ، وهو الذي كان ينصح الصحابة اذا ما توجهوا لحرب لا يمثلوا ، أو يقطعوا نخلاً أو يقتلوا طفلاً أو امرأة ... الخ لأن الحرب في الاسلام انما شرعت دفاعاً عن النفس والعقيدة .. أى أنها حرب هدفها التطهير والتعمير ، وليس حرباً للتخييب والتدمير .

٣ — وقد أنهى النبي — صلى الله عليه وسلم — هذا الكتاب المنسوب اليه ببيتين من الشعر لا يستقيم وزنهما ، زيادة على ما فيهما من ركيه وضعف في المعنى وهما :

الا بلغ عن قريشا من لسان كالحسام
الا هلموا كى تلقو ما لاقيتم من الصمصم في بدن وهام

ولم يعرف عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه تمثل بشعر في كتبه ، كما أن تشبيهه لسانه « بالحسام » تشبيه غريب لا يليق بمقام النبوة ، وإن ناسب شاعراً في مقام الهجاء والحماسة .

٤ — واقرار النبي — صلى الله عليه وسلم — للحلف الذي كان بين جده وخزاعة — على ما به من سجع — لا يدل على اقراره مثل هذا الأسلوب ، انما كان اقراره لمضمون الحلف ذاته ، وربما كان هذا الحلف

هو الدافع الأساسي الذي دفع خزاعة إلى الدخول في حلف النبي — صلى الله عليه وسلم — بعد عقد صلح الحديبية بين النبي وقريش .

٥ — والكتب التي بين أيدينا لأبي سفيان — وبعضها موجهة للنبي — صلى الله عليه وسلم — لم تستخدم هذا الأسلوب المسجوع ، ومنها الكتاب الذي يهدى فيه النبي المسلمين أيام الخندق « بالاستئصال » . وليس هناك داعية قدّعوه إلى استخدام هذا الأسلوب المسجوع في هذا الكتاب بصفة خاصة .

٦ — والدكتور حميد الله شكك في كتاب أبي سفيان ورد النبي عليه نصرهما بالتعليق الآتي :

« ... ولم أثرأ لهذا المكتوب في الكتب المتداولة ولا يكاد يصح ، نظراً إلى أسلوبه » . وقد نقله من مخطوطه أيا صوفيا لكتاب السيرة لحمد ابن جرير الطبرى . وأغلبظن أن العقاد نقل الكتابين عن حميد الله من كتابه مجموعة الوثائق^(٧٤) .

الشواهد القرآنية والأسلوب النبوى

وكان من الطبيعى أن يطعم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كتبه ورسائله بأيات من القرآن الكريم : ولا عجب في ذلك فقد تربى على مائدة القرآن ، وكان بيانه الساحر أهم مصادر نصاحتة . وكان للنبي — عليه السلام — منهج دقيق في سوق الآيات في كتبه يعتمد على ركيزتين :

- الأولى : طبيعة من يبعث إليه الرسالة ومركزه الدينى والاجتماعى .
- والثانية : طبيعة السياق والمضمون الذى تعبر عنه الرسالة .

^(٧٤) انظر حميد الله ٥٣ .

فهو في كتبه التي من كان على دين كتابي يسوق آية تخاطب أهل الكتاب
 « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، لا نعبد إلا الله ، ولا
 نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا
 فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون » (٧٥) .

فهو يورد الآية بنصها في كتابه لقيصر الروم (هرقل) وفي كتابه إلى
 المقوس عظيم القبط في مصر : فالنصرانية دين الرجلين ، ومن ثم كانت في
 موضعها الذي لا يفني فيه غيرها . كما أنها لا يستشهد بها في كتاب موجه
 لأنشرك يعبد غير الله .

وفي كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة وقد كان نصرانياً ورجل صدق
 ودين يضمن كتابه ما قاله القرآن في طبيعة عيسى فهو « روح الله وكلمه
 القساها إلى مريم البقول الطيبة الحصينة » وهو اقتباس واضح من قوله
 تعالى « اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح
 عيسى بن مريم ۰۰۰۰ » (٧٦) .

ويقول عنه النبي عليه السلام في رسالته « فحملت بعيسى ، حملته
 من روحه ونفخه ۰۰ » وهو إشارة إلى قوله تعالى « ومريم ابنة عمران
 التي أحصنت فرجها فنفحنا فيها من روحنا ۰۰ » (٧٧) .

ثم يكون الشأن الأعلى في البلاغة حين يرافق النبي - صلى الله عليه
 وسلم - ما في النصرانية من روح المحبة والتسامح والسلام فيتضمن كتابه
 من أسماء الله الحسنى ما يتفق مع طبيعة هذا الدين « فاني أحمد إليك الله
 الذي لا إله إلا هو الملك القدس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ۰۰

(٧٥) آل عمران ٦٤

(٧٦) آل عمران ٤٥

(٧٧) التحرير ١٢

مع أن نص الآية القرآنية « هو الله الذي لا إله إلا هو إله القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار التكبر . سبحان الله عما يشركون » ولتكن — عليه السلام — عرض في كتابه من أسماء الله الحسنى ما يكون النجاشى أكثر اهتزازاً له وأشد خشوعاً أمامه من غيره ، وليبين ما بين الديانتين من تلاق صادق في العقيدة الألوهية . وجاء الحديث من قبل عن طبيعة السيد المسيح وأمه مريم .. حديث تعظيم وتجلية وتوقير رداً على ما زوره بعث قريش لمحاولة الإيقاع بين النجاشى وبين مهاجرة المسلمين إلى الحبشة^(٧٨) .

أما إذا كان من ترسل إليه الرسالة كافراً بالله مثل كسرى ملك الفرس فأسلوب « الرسول النذير » هنا هو أنساب الأساليب ، فيبين عليه السلام بعد أن يدعوه للإسلام أنه بعث للناس كافة لينذر من كان حياً « ويحق القول على الكافرين »^(٧٩) .

* * *

هذا عن الركيزة الأولى للاستشهاد القرآني في كتب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهي مراعاة طبيعة المرسل إليه ديناً ومركزًا . أما الركيزة الثانية فهي طبيعة السياق والمضمون والتناسب المعنوي بين الآية المسوقة والمعنى الذي تحملها الرسالة أو العهد . وكان عهده لعمرو بن حزم الأنصارى حين ولاد اليمن من أعمّر كتبه بالآيات القرآنية . وكل آية من هذه الآيات ترتبط ارتباطاً معنوياً وثيقاً بتوجيهه أو مبدأً أو قاعدةً أو أمرً أو تنظيم مما ساقه الرسول — صلى الله عليه وسلم — في كتابه . فهو

(٧٨) ويدور هذا الدار أيضاً ما استشهد به النبي — صلى الله عليه وسلم — من قرآن في كتابه ليهود خبير وحديثه عن موسى والأسباط وتبشير كتبهم بظهوره وظهور الإسلام ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل [انظر حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية : ٦٨] .

(٧٩) سورة يس ٧٠ .

يجعل أساس العهد الطويل الوفاء بالعهود والعقود والوعود ، فيتصدره بقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود »^(٨٠) .

وفي سياق حديثه عما يجب أن يتحلى به الحاكم من صلاح وتقىوى يستشهد بقوله تعالى « إن الله مع الذين انتقوا والذين هم محسنون »^(٨١) . ويستشهد بقوله تعالى « ألا لعنة الله على الظالمين »^(٨٢) في سياق حديثه عن واجبات الحاكم ، في ضرب الظلم والظالمين ، والانتصار للمظلومين والمستضعفين . . وطريقة استشهاد الرسول — صلى الله عليه وسلم — يأتي على ثلاثة وجوه :

١ — فهو قد يستشهد بالآية كاملة . أو جزء من آية دون تغيير كاستشهاده بصدر الآية الأولى من سورة المائدة .

٢ — وقد يضمن كلامه الآية أو جزءاً منها مع تغيير طفيف فتناسب الآية في سياق الكلام كماء الذهب وكأنها بنت لحظتها ، وكأنها لم تنزل الا لهذا الكتاب .

٣ — وقد يكون الأمر كلمات قرآنية تنتشر هنا وهناك في تصاعيف كتبه ، وهي أكثر من أن تحصى . مثل : الهدى والحق — تولى — سبيل الله . . . الخ .

* * *

وقد استخلص الأستاذ أنيس المقدسي من رسائل النبي — عليه السلام — سمة أسلوبية تلفت النظر وهي استخدام الفاظ وعبارات خاصة قلما نعثر عليها في سوى هذه الكتب بقوله : ما كان أحد مكانه — مابل

(٨٠) سورة المائدة ١

(٨١) سورة النحل ١٢٨

(٨٢) سورة هود ١٨

بحر صوفه^(٨٣) . . . لم آثم ما لكم (أى لم أجازكم على ما لكم من أعمال تستوجب الجزاء) — لم أضع فيكم منذ سالت (أى لم أقم بأمر فيه نقض لعهد أو إساءة لكم) . — ان لهم سعاية (أى صدقة) وليقم فلان (أى ليتول الأمر أو ليقم بالصلة في الناس وجمع الصدقات) . لا يحاقه في ذلك أحد (أى لا يدعى أن له حقاً فيه) . . . وان الله ورسوله جار على ذلك (أى حليف أو مناصر)^(٨٤) .

بين التقرير والتصوير

أسلوب الرسول صلى الله عليه يرتبط في طبيعته وسماته بطبيعة الموضوع الذي يتناوله الكتاب بحيث يكون هو أقرب الأساليب للموضوع الذي يتناوله والأمكار التي يتكون منها هذا الموضوع . ففي الكتب التشريعية والكتب التنظيمية والإدارية يقترب أسلوبه من الأسلوب العلمي ، بل يكاد يكون علمياً بحتاً في كتب « الفنائم والعطسايا » حتى ليكون الكتاب مجرد « قائمة » لا تتحوى إلا أسماء وأرقاماً ككتابه في مقاسم أموال خير الذي جاء فيه : « هذا ما أعطى محمد رسول الله : لأبي بكر بن أبي قحافة مائة وسق ، ولعقيل بن أبي طالب مائة وأربعين ، ولبني جعفر بن أبي طالب خمسين وسقا ، ولربيعية بن الحارت مائة وسق . . . »^(٨٥) .

ويمضي الكتاب على هذا النهج إلى نهايته ، بهذا الأسلوب المباشر المحدد الذي لا يزيد على ذكر « أسماء » و « استحقاقات » ولم يتبع فيه الرسول عليه السلام النهج المطرد في الكتب والرسائل في البدء والختام

(٨٣) هذه العبارة بالذات (ما بل بحر صوفه) وردت في احلاف الجاهلية . كخلف الفضول وخلف عبد المطلب والله مع خزاعة والطفان أقرهما النبي صلى الله عليه وسلم [انظر جمهورة رسائل العرب ٢٥ / ١] .

(٨٤) أنبيس المقدس : تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ٣٧ .

(٨٥) مجموعة الوثائق ٧٠ .

وغير ذلك لأنه غير مطلوب في مقام لا يحتاج إلا إلى التحديد الجازم حفظاً
إذا نص عليه من حقوق . فالأسلوب التقريري المباشر ليس هو أفضل
الأساليب في هذا المقام فحسب ، بل هو الأسلوب الفذ المطلوب بحيث
لا يغنى عنه غيره من الأساليب .

* * *

هذا الأسلوب المباشر كان همه الأكبر « العنصر الفكري » . أي
المضمون المعنوي انتلاقاً من « مهمة التبليغ » لذلك قل فيه « العنصر
التصويري » وخصوصاً كتب الاقطاع والفنائم ، والكتب التنظيمية والإدارية .

ولكن هذه الكتب لم تخل تماماً من لمحات تصويرية عفوية بارعة
يظهر عليها بصمات البيئة العربية آنذاك . وهي في مجموعها تتسم بالوضوح
والبساطة والبعد عن التعقيد وقرب المأخذ حتى ليخيل للقارئ أنهما
أساليب حقيقة لا مجازية . ومن هذه الصور :

« ما بل ببحر صوفه »^(٦) وهو كناية عن الديمومة وعدم الانقطاع .
ومنها : وأعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحاfer . فالخلف مجاز
مرسل علاقته الجزئية والحاfer مجاز مرسل علاقته الجزئية كذلك ويعنى به
الخييل . وفي العبارة كناية عن سعة انتشار الدعوة .

ومن كتابه لابنى الجندى « وخيلي تحل بساحتكم » وهي كناية عن
القدرة والنصر والسيطرة . ومن الأساليب الاستعارية الجميلة قوله
متحدثاً عن أكير دومة في كتابه إليه « ... أجاب إلى الإسلام ، وخلع
الأنداد والأصنام » فقد جعل الأنداد والأصنام قيداً يثقل صاحبه ، وحذف
المشبه به ورمن إليه بلازمة من لوازمه وهي الخلع .

(٦) صوف البحر شيء يشبه صوف الحيوان والمفرد صوفه ولعله زبد البحر . أو هو
الأسفنج .

ومن تشبيهاته في عهد المودعة بينه وبين اليهود « وأن الجبار كالنفس » ..

ولكن أكثر كتبه توهجا وأعمرا تصويرا كتابه إلى معاذ بن جبل في تعزيته في ابنه ، ولا عجب في ذلك فهى رسالة أخوانية خاصة لا تتعلق بأى أمر من أمور الدولة أو سياستها العامة . ومن الصور الجميلة فيها تشبيه الأنفس والأهل والموالى بالعطايا ومن الأساليب الاستعارية « يحيط جزرك صبرك »^(٦٣) . والسجع في الرسالة جاء بلا تصنّع أو تكلف (.. الأجر .. الصبر .. الشكر) وكان الإزدواج في العبارات كالسجع لا تكلف فيه ولا تصيد . وفي الرسائلات مقابلات رائعة كان لها اثر كبير في ابراز القيم الإسلامية والنفسية التي حرص عليها الرسول — صلى الله عليه وسلم .

* * *

وكانت رسائل الآخرين في هذا العصر يقل كذلك فيها التصوير .. وان وجد فهو قريب المأخذ غير بعيد وغير شارد كما نرى في كتاب « الوليد بن الوليد » — وكان قد أسلم — إلى أخيه خالد يدعوه فيه إلى الإسلام^(٦٤) .

وكما نرى في كتاب خالد بن الوليد للرسول — صلى الله عليه وسلم — ينبعه فيه بسلام بنى الحارث بن كعب . والكتاب يتدفق بأدب الحديث وتوقير مقام النبوة : فهو يذكر اسم النبي قبل اسمه ، وهو يصفه بالنبوة والرسالة في مطلع الرسالة ، ويكرر ذكر النبي — صلى الله عليه وسلم — تلذاً بهذا الذكر ، وهو دائمًا مقرون بالصلوة والتسليم عليه . وهو يتحدث عنه غالباً بضمير الغائب تهيباً وتوقيراً لمقامه . وفي اعطااف الرسالة

(٦٣) أي يأخذك الحزن والفراغ ولا ت慈悲 ومن ثم لا تنال ثواب الصابرين .

(٦٤) انظر حميد الله : مجموعة الوثائق ٦٤ .

تسرى عاملة حب متذدق صادق من سيف الله المسؤول للنبي الكريم - عليه السلام - وتكاد الرسالة تخلو من الصور عدا تشبيه واحد في (معالم الاسلام) وهي صورة أقرب ما تكون للأسلوب الحقيقى .

بين الشك واليقين

ومن فحص الرسائل التي تنسب للنبي - صلى الله عليه وسلم - نستطيع بالاحتکام الى طوابعها الفکرية وملامحها الأسلوبية ان نحكم بصحتها او وضعها . ولكن قد يكون هناك من الأدلة المادية ما يجعلنا نرفض الرسالة ابتداء دون فحص مضمونها وسماتها ومثال ذلك كتاب ينسب الى النبي - صلى الله عليه وسلم - يسقط الجزية عن أهل خير . وقد حمل الكتاب في سنة ٤٧ هـ الى رئيس الرؤساء أبي القاسم على بن الحسن وزير القائم فعرضه على الخطيب البغدادي فقال : مزور ، لأن فيه شهادة سعد بن معاذ ، وقد مات قبل فتح خير بستين ، وفيه شهادة معاوية وانما أسلم عام فتح مكة اي بعد خير بستة .

ولكن ابن القيم يتخذ من مضمون الكتاب سببا لرفض نسبته الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اذ لم تكن الجزية وقت فتح خير ، ولم تنزل آية الجزية الا بعد ستين من غزوة خير ، ولم تكن على اهل خير كلف ولا سخرة في زمان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى تووضع عنهم^(٨٩) .

* * *

وقد عرضنا من قبل للمعيارين الذين وضعهما الدكتور حميد الله للحكم بصحة الرسائل او وضعها ، وقلنا ان كل رسالة يجب ان ينظر اليها

(٨٩) حميد الله : السابق ٩٥ - ٩٦ .

في ذاتها نظرة شمولية فاحصة ، ولا يكفى أن نقول أن الرسالة موضوعة لأنها تضمنت حقوقا دون أن تنص على واجبات تقابلها ، وقلنا — بناء على هذا الفحص — ان رسالة أبي سفيان التي زعم أنه بعث بها إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكذلك رد النبي عليها ... قلنا إنها موضوعات لأنسباب أبدينها منها ما يتعلق بالمضمون ومنها ما يتعلق بالأسلوب ، كما وقفنا وقفة متميزة أمام رسالة النبي — صلى الله عليه وسلم — إلى معاذ بن جبل يعزبه في ابن فقدمه ، ورددنا على من شلّك في نسبة هذه الرسالة إلى النبي — عليه السلام —^(٩٠) .

كما يوجد بعض الكتب التي لا يوجد أدنى شبّهه في وضعها ومنها كتابان نقلهما الدكتور حميد الله من مجموعة تأليفات الآباء الشرقيين ، وبصرف النظر عن طولهما وما نصا عليه من حقوق مسرفة لنصارى نجران ، يستطيع القارئ العادى أن يدرك بسهولة أن هذين « العهدين » وضعوا في العصر الحديث أو أحد العصرتين التركى والمملوکى ، وأنهما أبعد ما يكونان عن أسلوب النبي عليه السلام . وأعتقد أن واصعه أحد رجال الدين النصارى . ونكتفى بالنظر إلى العهد الأول^(٩١) من العهدين فنرى أن القارئ لا يتردد في الحكم بتزييفه . ومن أدلة ذلك :

- ١ — الطسول المفرط فقد بلغ ثلاثة اضعاف عهد المودعة بين الغبى والمسلمين واليهود .
- ٢ — عدم اتباع نهج الرسول عليه السلام في عهوده وكتبه فلم يكتب في ذيل العهد اسماء الكاتب والشهود .
- ٣ — ينص صدر الكتاب بأنه أمان من الله ورسوله « للذين أوتوا الكتاب من النصارى ، من كان منهم على دين نجران ، أو على شيء من نحل النصرانية ... » .

^(٩٠) هو غانم جواد في كتابه « الرسائل الفنية » ٧٥ - ٧٩ .

^(٩١) حميد الله : ١٤٦ .

مع أن النبي — عليه السلام — كان يتعامل مع النصارى على أساس أنهم أصحاب ملتوحة ، أما مسألة « النحل » والمذاهب هذه فكانت في عصور متاخرة .

٤ — يصور العهد النصاري بصورة « حماة الاسلام » فيأتي في العهد على لسان النبي — وأراد النصاري من تقوية أمرى . ونصبوا لمن كرهه ، وأراد تكذيبه وتغييره

بل يجعل منهم حماة الحدود الاسلامية ضد المغرين وذلك بدعائهم « وذبهم عن غزاة الشغور في نواحيم »

٥ — وكثير جداً من العبارات والكلمات لا يمكن بآلية حال ان يتافق مع أسلوب عصره كقوله « . . . فحضرت رؤساء المسلمين ، وأفاضل أصحابي ، وأكثت على نفسى الذى أرادوا ، وكتبت لهم كتاباً ، يحفظ عند أعقاب المسلمين ، من كان منهم سلطاناً أو غير سلطان ، فان على السلطان إنقاذ ما أهرب به » فاستعمال « الرؤساء » و « السلطان » يؤكدان أن العهد ان لم يكتب في العصر الحديث ففي أحد العصرین : التركى والملوکى .

ومثل هذا قوله « وعلى السوقه ان لا يؤذوهم ، وأن يكملوا لهم العهد » فالنحوى — عليه السلام — لم يقسم المسلمين الى « عليه » و « سوقه » ، وكيف يفعل وهو القائل « المسلمين تتكافأ دمائهم ، يسعى بذمتهم أنناهم وهم يد على من سواهم » .

وعبرة العهد السابقة تعكس ما كان يتعرض له النصاري في العصور المتاخرة على أيدي السوقه والحكام الظالمين من نقضوا روح الاسلام في التسامح وانصاف أهل الذمة مما أشار الجبرى الى كثير منه في تاريخه .

* * *

ويشكك الأستاذ أنيس المقدسى فى كتب النبي الى الملوك سنة ٦ هـ بمقدولة أن النبي - عليه السلام - لم يكن قد بلغ فى تلك السنة من القوة الحربية ما يرغم قبائل العرب القريبة على الخضوع القائم ، فكيف يعقل أن يهتم باخضاع كبار الملوك يومئذ وهو لا حول حربى له ولا طول . ففى مثل هذه الكتب الملوكية متسع للشك لمن أراده . والذى يراجع القصة التى حيكت حول كتاب الرسول الى ملك الروم يرجح انها من قبيل الأخبار التصصبية لا الحقائق التاريخية^(٩٢) .

وهو شك فى غير موضعه ، وليس له ما يبرره :

١ - فالهدف من هذه الكتب لم يكن « اخضاع كبار الملوك » كما ذهب الأستاذ المقدسى ، بل كان دعوة هؤلاء الى هدى الاسلام ، وليس في هذه الكتب ما يوحى بطلب النبي خضوعا واستسلاما وتبعية .

٢ - والقول بأن النبي - عليه السلام - لم يكن له في تلك السنة حول وطول قول غير صحيح ، ففى هذا العام هابتة قريش ، والا لقاتلته في الحديبية . بل انه وال المسلمين - مع أنهم لم يكن معهم من السلاح الا السيوف في القرب - تأهبا لقتال قريش اعتقادا من المسلمين أن قريشا قتلت عثمان بن عفان - رضى الله عنه - رسول رسول الله الى قريش .

٣ - والمسلمون خلال عامين فقط : الخامس والسادس الهجريين استطاعوا أن يقوموا بعشرين غزوة وسرية .

٤ - على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وال المسلمين معه كانوا يعوضون بقوة الإيمان ، وشجاعة القلب ، والتسليم بقاعدية « لن يصيّبنا إلا ما كتب الله لنا ما يعوضهم عن قسوة السلاح .

٩٢) تطور الأساليب للنشرية في الأدب العربي . ٣٤

٥ — وهذه الكتب بعث بها النبي — صلى الله عليه وسلم — بعد أن « عزل » جبهة قريش ، وجنى بهذا العهد كسبوا سياسية كبرى .

٦ — وأخيرا : من يقرأ هذه الكتب يرى أنها ذات سمات وملامح لا تختلف عن صفات الأسلوب النبوى في كتبه الأخرى .

* * *

وإن الخلاصة أن أغلب الكتب التي نقلتلينا عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صحيحة ، وقليل منها يسهل اكتشاف التزوير فيه وقد قدمنا نماذج مثل هذه الكتب .

هذا وآمل أن يتسع الوقت والعمر لتقديم الجزء الثاني من الكتاب الذي سيكون في أدب الرسائل في عهد الخلافة الراشدة . كما أعلنت في مقدمة الكتاب .

والحمد لله رب العالمين ..

مختارات من الكتب والرسائل

(١)

كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود بالمدينة^(١)

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثير ومنتبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس ، والمهاجرون من قريش على رباعتهم^(٢) يتعاقلون^(٣) بينهم ، وهم يفدون عانيهم^(٤) بالمعروف والقسط^(٥) بين المؤمنين . وبنو عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو ساعدة على رباعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الحارث على رباعتهم

• ٨٨ / سيرة ابن هشام

وهو أول كتاب كتبه النبي — صلى الله عليه وسلم — بالمدينة بعد نزوله بها ، وهو كما قلنا يمثل « دستور الحياة » في المجتمع أول الدولة الجديدة .

(٢) الربعة والرباعية (بفتح الراء) الشأن والحال . يريد أنهم على أمرهم الذين كانوا عليه من قبل : من أداء العقول والديات وغيرها . وأربعه أيضاً قسمة البلد فتشتمل على منازلهم ومسالكهم .

(٣) المعامل : الديات . والتعاقل هو اعطاء المعامل أي الديات . ويقصد يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات واعطائهم .

(٤) العانى : الأسى . وفي الحديث الشريف : « أطعموا الجائع وفوا العانى » وهو مأخوذ من العنوان أي الخضوع . والفعل : عنا يعنوا .

(٥) القسط : (بالكسر) : العدل . واقتسط : عدل . ومنه قوله تعالى « إن الله يحب المتساوين » .

يتناقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جشم على رباعتهم يتناقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار على رباعتهم يتناقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف على رباعتهم يتناقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النبيت على رباعتهم يتناقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على رباعتهم يتناقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وأن المؤمنين لا يتركون 'مفرحا'(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ، ولا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقيين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم(٢) ، أو أثم ، أو عدوان ، أو خساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد أحددهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا 'ينصر' كافر "على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة . يجير عليهم أدناهم(٣) ، وأن المؤمنين بعضهم موالي(٤) بعض دون الناس .

(٦) أفرحه الدين : أثقله . والمفرح (فتح الراء) هو الذي أثقله الدين ولا يستطيع قضاه .

(٧) الدسعة : الدفعه وانعطية ، وكذلك الدسيعة . وابتغى دسيعة ظلم : أي أراد عطاء أو رشوة مقابل أن يظلم الآخرين .

(٨) أدناهم : أثقلهم شيئا . ومعنى « يجير عليهم أدناهم » أي إذا أجر واحد من المسلمين — ولو كان قليل الشأن — وأحدا من الأعداء فعلى بقية المسلمين أن يحترموا أجراه . وفي الحديث الشريف « المسلمين تتکافأ دماءهم يسعى بذتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم .

(٩) الموالى : جمع مولى وهو المؤيد والناصر . وتتأتى بمعنى السيد والعبد .

وأنه من تبعنا من يهود ، فإن له النصر والأسوة^(١٠) غير مظلومين ، ولا مُتناصر عليهم ، وأن سلم المؤمنين واحدة^(١١) ، لا يسلام مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت معنا يعقوب بعضها بعضاً^(١٢) ، وأن المؤمنين بىء^(١٣) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجير مشرك ملا لقريش ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط^(١٤) مؤمناً قتلاً عن بيته^(١٥) فاته قود^(١٦) به إلا أن يرضي ولـي المقتول^(١٧) ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليـوم الآخر أن ينصر مـحدثاً^(١٨) ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ، فـلـآن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيـمة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عـدـل ، وأنـكم مـهما اختلفـتم فيهـ منـ شـيءـ ، فـلـآن مرـدـه^(١٩) إلى الله عـزـ وـجـلـ ، وـالـىـ مـحمدـ .

وأن اليـهـودـ يـنـفـقـونـ ماـ دـامـوـ مـهـارـبـينـ ، وـأـنـ يـهـودـ بـنـىـ عـوـفـ أـمـةـ مـعـ المؤـمـنـينـ ، لـلـيـهـودـ دـيـنـهـمـ ، وـلـلـمـسـلـمـينـ دـيـنـهـمـ ، مـوـالـيـهـمـ وـأـنـفـسـهـمـ ، إـلـىـ

(١٠) الأسوة هنا بمعنى الواسطة والمعالجة . وواسطه : عالجه .

(١١) السلم (بفتح السين وكسرها) الصلح . والكلمة تستعمل مؤثثاً ومذكراً أي أن الصلح الذي يوقعه المسلمين يصدق عليهم جميعاً ، ولا يجوز لسلم أن ينفرد بذلك واحد دونهم .

(١٢) أي يجب ألا يكون عباء القتال على بعض المسلمين دون بعضهم بل يكون مناوية بينهم بحيث يسمون فيه الجميع .

(١٣) بـيـءـ : يـساـوىـ . وـأـبـاءـ القـاتـلـ بـالـقـتـيلـ إـذـ قـتـلـهـ بـهـ .

(١٤) اعتـبطـهـ أي قـتـلـهـ دونـ ذـنبـ جـنـاهـ .

(١٥) القـودـ : القـصـاصـ . أـيـ يـقـتـلـ بـهـ .

(١٦) أـيـ يـرـضـىـ بـالـدـيـةـ أـوـ بـالـعـفـوـ .

(١٧) المـحدـثـ : الجـانـىـ .

(١٨) مرـدـهـ : مـرـجـعـهـ .

من ظلم وأثم ، فانه لا يوتنغ^(٢٠) الا نفسه وأهل بيته ، وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، الا من ظلم وأثم فانه لا يوتنغ الا نفسه وأهل بيته ، وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وأن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن البر دون الاثم^(٢١) ، وأن موالي ثعلبة كأنفسهم ، وأن بطانة يهود كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد ، وأنه لا ينحجز على ثار جرح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته الا من ظلم ، وأن الله على أבר هذا ، وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وأنه لم يأثم "أمرؤ" بحليفه وأن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يثرب حرام جوّها لأهل هذه الصحيفة^(٢٢) وأن الجار كالنفس غير مضار ، ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة الا باذن أهلها ٠

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار^(٢٣) يخاف فساده ، فان مردہ الى الله عز وجل ، والى محمد رسول الله ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قريش

(٢٠) يوتنغ : يهلك .

(٢١) أي أن البر يجب أن يسود الناس حتى يحول بينهم وبين الاثم والشر .

(٢٢) أي أن عليهم ألا ينتهكوا حرمة يثرب .

(٢٣) الاشتجار : الخلاف والنزاع .

ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم^(٤) يثرب ، وإذا دعوا
إلى صلح يصالحونه ويجلسونه ، فإنهم يصالحونه ويجلسونه ، وأنهم إذا
دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين ، على
كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قاتلهم ، وأن يهود الأوس موالיהם
وأنفسهم على مثل ما للأهل هذه الصحيفة ، مع البر الحسن من أهل
هذه الصحيفة ، وأن البر دون الاثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ،
وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول
هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن
بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن برأ وانتقى ، ومحمد رسول
الله » .

(٤) دهم : هاجم واقتصر .

(٢)

كتابه - صلى الله عليه وسلم - إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين^(٢٥)

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي : سلم أنت^(٢٦) ، فانى أحمد' اليك الله الذى لا اله الا هو ، أما بعد : فان من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم ، له ذمة الله وذمة رسوله ، فمن أحب ذلك من المجوس ، فانه آمن » ، ومن أبى فانه عليه الجزية » ٠

(٣)

رد المنذر على الكتاب^(٢٧)

« أما بعد يا رسول الله : فانى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهدون ، فأحدثت لى في ذلك أمرك »^(٢٨) ٠

(٢٥) صبح الأعشى ٢٧٦ / ٦ وفتح البلدان ٩١ .

(٢٦) أى أنت ذو سلام . أو أدعوك أن تعيش في سلام .

(٢٧) جمهرة رسائل العرب ٤٦ . ورد النبى على هذا الرد نفس المرجع والصفحة .

(٢٨) أى مرني بما تراه في هذا الشأن .

(٤)

رده - صلى الله عليه وسلم - على رد المنذر

«بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي . سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، وأشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد : فانى أذكرك الله عز وجل ، فانه من ينصح فانما ينصح لنفسه ، وانه من يطبع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وان رسلى قد أثروا عليك خيرا ، وإذا قد شفعتك في قومك ، فاترك المسلمين ما أسلمو عليه ، وعفوت عن أهل الذنب فا قبل منهم ، وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته ، أو مجومسيته فعليه الجزية » .

(٥)

كتاب خالد بن الوليد إلى النبي صلى الله عليه وسلم (١)

«بسم الله الرحمن الرحيم ، لحمد النبي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من خالد ابن الوليد : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو .

اما بعد يا رسول الله : صلى الله عليك ، فانك بعثتنى الى بني الحارث بن كعب ، وأمرتني اذا أتيتكم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم الى الاسلام ، فان أسلمو أقمت فيهم ، وقبلت منهم ، وعامتهم معالم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه وان لم يسلمو قاتلتهم ، وانى

(١) صبح الاعشى ٤٦٥/٦ .

قدمتُ عليهم فدعوتهم الى الاسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركبانا قالوا : يا بنى الحارث أسلموا تسلموا^(٣٠) ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم ، آمرهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الاسلام ، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى يكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم — ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته » .

(٦)

كتابه صلى الله عليه وسلم الى معاذ بن جبل^(٣١) يعزيه في ابن فقده

« من محمد رسول الله الى معاذ بن جبل :

سلام عليك ، فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، أما بعد فعظم الله لك الاجر ، وألهلك الصبر ، ورزقنا واياك الشكر ، ثم ان أنفسنا وأهلينا وموالينا^(٣٢) من موابح^(٣٣) الله السننية ، وعوارفه المستودعة^(٣٤) ، نتمتع بها الى أجل محدود ، وتقبض لوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكر اذا أعطى ، والصبر اذا ابتلى .

وكان ابنك من موابح الله السننية ، وعوارفه المستودعة ، متعك به في غبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير : الصلاة والرحمة والمهدى ،

(٣٠) اي اعتنقو الاسلام حتى تخمنوا السلامه في الدنيا والآخرة .

(٣١) صبح الآعشى ٨٠/٩ .

(٣٢) المولى هو السيد والنصير والعبد .

(٣٣) الموابح : العطایا .

(٣٤) العوارف جمع عارفة وهي المعروف . المستودعة : التي هي في حكم الوديعة ومن حق صاحبها أن يستردها .

ان صبرت واحتسبت ، فلا تجتمعن عليك يا معاذ خصلتين^(٣٥) ان يحيط
جزعك^(٣٦) صبرك ، فتخدم على ما فاتك ، فلو قدمت على ثواب
مصيبتك ، قد أطعت ربك ، وتنجزت موعوده ، عرفت أن المصيبة قد
قصرت عنه ، وأعلم أن الجزء لا يرد ميتا ، ولا يدفع حزنا ، فأحسن
الجزاء وتنجز الموعود ، ولنذهب أسفك ما هو نازل بك فكان قد «^(٣٧) »

(٧)

كتاب أبي سفيان

الى النبي - صلى الله عليه وسلم - في الخندق^(٣٨)

باسمك اللهم : فانى أحلف باللات والعزى ، لقد سرت ' اليك في
جمعنا ، وانا نريد ألا نعود أبدا حتى نستأصلكم^(٣٩) ، فرأيتك قد
كرهت لقاءنا ، وجعلت مضائق^(٤٠) وختائق ، فلقيت شعرى^(٤١) من
علمك هذا فان نرجع عنكم فلكلم منا يوم كيوم احد^(٤٢) .

(٣٥) الخصلة : الصفة . ويقصد بالخصلتين : اي فقد الولد وفقد
الثواب بعد الصبر .

(٣٦) يحيط : يبطل ويفسد ، والجزع : الخوف والفزاع .

(٣٧) فكان قد : اي كان قد نزل بك الموت .

(٣٨) امتاع الأسماء ٢٣٩ . وقد كتبه أبو سفيان وبعث به مع أبي
اسامة الجشمي ، فقرأه أبي بن كعب على رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - في قبته ، وكتب له الرد عليه .

(٣٩) نستأصلكم : نقضي عليكم قضاء مبرما ، فلا يبقى لكم بقية .

(٤٠) مضائق : جمع مضيق . وهو المكان الضيق يصعب المرور منه .

(٤١) ليت شعرى : ليتنيأشعر وأعرف .

(٤٢) كانت قريش تعدد معركة أحد من مفاخرها ، يقول أبو سفيان
- من روایة أخرى لكتابه هذا « ثم غزونك في جمعنا يوم أحد ، فكان
وقتنا فيكم مثل وقعتكم بنا ببدر » السابقاً . ٢٤٠ .

(٨)

رد النبي - عليه السلام - على أبي سفيان^(٣)

من محمد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب . أما بعد ، فقد مما
غرك بالله الغرور^(٤٤) . أما ما ذكرت — أنك سرت علينا في جمعكم ، وأنك
لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا — فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ،
ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى .

وأما قولك : من علمك الذي صنعنا من الخندق فأن الله ألمهنى
ذلك لما أراد من غيظك وغيظ أصحابك ، ول يأتيك يوم تدافعنى
بالراح^(٤٥) ، ول يأتيك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأسلف ونائلة
وهبل^(٤٦) ، حتى أذكرك ذلك .

(٤٣) امتاع الأسماع . ٢٣٩ .

(٤٤) الغرور : الشيطان .

(٤٥) الراح : جمع راحة وهي الكف .

(٤٦) أسماء أصنام كان العرب يعبدونها .

(٩)

كتاب مسيلمة بن حبيب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -^(٤٧)

« من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله :

سلام عليك ، أما بعد فاني قد أشركت في الأمر معك ، وان لنا
نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم يعتدون » .

(١٠)

رده صلى الله عليه وسلم على مسيلمة

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة
الكذاب . سلام على من اتبع المهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله
يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » .

^(٤٧) سيرة ابن هشام ٤/١٦٨ . والبلاذري : فتوح البلدان ٩٧
مع خلاف ضئيل .

وكان مسيلمة قد جاء مع وفد بني حنيفة إلى المدينة ، وأخذ يقول
« لو جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته » فأشار النبي - عليه السلام -
إلى قطعة جريدة معه وقال « لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن
أتعدي أمر الله فيك ، ولئن أديرت ليعقرنك الله » مسلم ٥/١٣٢ - كتاب
الرؤيا .

المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية - د. حامد سلطان .
دار النهضة العربية . القاهرة . ١٩٧٠ .
- ٣ - أحياء علوم الدين - الغزالى : حجة الإسلام أبو حامد .
دار الشعب - القاهرة (د.ت) .
- ٤ - أدب الحديث النبوى - د. بكري شيخ أمين .
ط٥ . دار الشروق . القاهرة ١٩٨١ .
- ٥ - أدب الخلفاء الراشدين - د. جابر قميحة .
دار الكتاب المصرى - اللبناني . القاهرة ١٩٨٥ .
- ٦ - أساس البلاغة - الزمخشري : أبو القاسم محمود بن عمر بن الأثير .
دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٢ .
- ٧ - أسباب النزول - السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر .
مطبع شركة الاعلانات الشرقية . القاهرة ١٩٦٣ .
- ٨ - اسد الغابة في معرفة الصحابة - ابن الأثير : عز الدين .
دار الشعب . القاهرة (د.ت) .
- ٩ - أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجاني .
دار المنار - القاهرة ١٩٧٢ .
- ١٠ - اعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صادق الرافعى .
ط٤ . مطبعة القاهرة - القاهرة ١٩٤٥ .

- ١١ - الأغاني - الأصفهانى : أبو الفرج على بن الحسين - تحقيق وشرح
ابراهيم الابيارى .
دار الشعب - القاهرة (د.ت) .
- ١٢ - امتناع الأسماء - المقرizi : تقى الدين أحمد بن على - تحقيق
الشيخ محمود شاكر .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٤١ .
- ١٣ - البيان والتبيين - الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر .
ط ٢ - دمشق ١٩٦٣ .
- ١٤ - تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام - المجلد الأول المغازى -
الذهبي : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان - تحقيق :
محمد محمود حمدان .
ط ١ . دار الكتاب المصرى - اللبناني - القاهرة ١٩٨٥ .
- ١٥ - تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى) - الطبرى : محمد بن جرير
- تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .
دار المعارف - القاهرة (د.ت) .
- ١٦ - تاج العروس من جواهر القاموس - الزبيدي : محب الدين أبو
الفيلق السيد محمد مرتضى .
المطبعة الخيرية - القاهرة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) .
- ١٧ - تراث الاسلام (قسم ٣) - شاخت وبوزورت - ترجمة د. حسين
مؤنس . د. احسان صدقى .
الكويت ١٩٧٨ .
- ١٨ - التشريع والفقه في الاسلام تاريخاً ومنهجاً - مناع القطان .
ط ١ - مكتبة وهبة - القاهرة ١٩٧٦ .

- ١٩ - تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي - أنيس المقدسي .
 ط ٥ - دار العلم للملائين - بيروت ١٩٧٤ .
- ٢٠ - تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار) - الإمام : محمد عبد الله .
 ط ٣ - دار المنار - القاهرة ١٩٦٧ .
- ٢١ - تنازع القوانين - د. جابر جاد عبد الرحمن .
 دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٢ .
- ٢٢ - الجامع لأحكام القرآن - القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري .
 دار الشعب - القاهرة (د.ت) .
- ٢٣ - جمرة خطب العرب - أحمد زكي صفت .
 ط ٢ - مصطفى الطبى ١٩٦٢ .
- ٢٤ - جمهرة رسائل العرب - أحمد زكي صفت .
 ط ٢ - مصطفى الطبى - القاهرة ١٩٦٢ .
- ٢٥ - الحكومة الإسلامية - أبو الأعلى المودورى - ترجمة احمد ادريس .
 ط ٢ - المختار الاسلامي - القاهرة ١٩٨٠ .
- ٢٦ - الحكومة الإسلامية - د. محمد حسين هيكل .
 دار المعارف - القاهرة ١٩٧٧ .
- ٢٧ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي - د.أحمد الحوفي .
 ط ٢ - مكتبة نهضة مصر - القاهرة ١٩٥٢ .
- ٢٨ - حياة محمد - د. حسين هيكل .
 ط ١٣ - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٥ .

- ٢٩ - الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي - غانم جوار رضا .
مطبعة أسعد - بغداد (د.ت) .
- ٣٠ - الرسول حياة محمد - ر.ف. بودلى - ترجمة محمد محمد فرج -
د. عبد الحميد السحار .
ط ٢ - مكتبة مصر - القاهرة (د.ت) .
- ٣١ - روائع الأدب في عصور العربية الظاهرة ج ١ (عصر الراشدين وبنى أمية) - د. محمد نبيه حجاب .
ط ١ - دار المعارف بالقاهرة .
- ٣٢ - زاد المغاد في هدى خير العباد - ابن القيم الجوزي الإمام الحافظ أبو عبد الله .
مكتبة صبح - القاهرة (د.ت) .
- ٣٣ - السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية - ابن تيمية أبو العباس نقى الدين أحمد بن تيمية .
ط ٤ - دار الكتاب العربي - القاهرة .
- ٣٤ - السيرة النبوية - ابن هشام : أبو محمد بن عبد الملك .
المكتبة التوفيقية - القاهرة (د.ت) .
- ٣٥ - شرح القصائد العشر - التبريزى الخطيب أبو زكريا يحيى بن على .
المطبعة المنيرية - القاهرة ١٣٦٩ هـ .
- ٣٦ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى - القاضى عياض بن موسى الألיחبى
مكتبة دار التراث - القاهرة - عن طبعة المطبعة العثمانية ١٣١٢ -
القاهرة .

- ٣٧ - صحيح الأعنى في صناعة الإنسا - القلقشندي : أبو العباس أحمد بن على .
المؤسسة المصرية العامة - القاهرة ١٩٦٣ .
- ٣٨ - صحيح البخاري - الإمام البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ابن ابراهيم .
دار الشعب - القاهرة (د.ت) .
- ٣٩ - صحيح مسلم - أبو الحسين مسلم بن الحاج القشيري .
دار الشعب - القاهرة (د.ت) .
- ٤٠ - الطبقات الكبرى - محمد بن سعد .
دار صادر - بيروت ١٩٥٧ .
- ٤١ - عبقرية محمد - عباس محمود العقاد .
دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة ١٩٧٧ .
- ٤٢ - العسكرية العربية لاسلامية - محمود شيت خطاب .
ط ١ - قطر ١٤٠٣ .
- ٤٣ - العقد الفريد - ابن عبد ربه الأندلسى أبو عمر أحمد بن محمد .
نجمة التأليف والترجمة وانشر - القاهرة ١٩٤٠ .
- ٤٤ - فتوح البلدان - الإمام البلاذري أبو الحسن - راجعه وعلق عليه
رسوان محمد رضوان .
دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٩٧٨ .
- ٤٥ - فجر الاسلام - أحمد أمين .
ط ٧ - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .
- ٤٦ - فقة السيرة - محمد الفزالي .
ط ١ - دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٥٣ .

- ٤٧ - الفن ومذاهبه في النثر العربي - د. شوقي ضيف .
ط ٩ - دار المعارف ١٩٨٠ .
- ٤٨ - في ظلال القرآن - سيد قطب .
دار الشروق - القاهرة ١٩٧٨ .
- ٤٩ - القانون الدولي العام في وقت السلم - د. حامد سلطان .
ط ٣ - دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٨ .
- ٥٠ - القضايا الكبرى في الإسلام - عبد المتعال الصعيدي .
مكتبة درب الجماميز - القاهرة (د.ت) .
- ٥١ - الكامل في التاريخ - عز الدين بن الأثير .
دار صادر - بيروت ١٩٧٩ .
- ٥٢ - كتاب الصناعتين - أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري .
دار احياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٥٢ .
- ٥٣ - كتاب الوزراء والكتاب - الجهمي : أبو عبد الله محمد بن عبدوس
تحقيق مصطفى السقا وآخرين .
ط ٢ - مصطفى الباجي الطبي ١٩٨٠ .
- ٥٤ - الكشاف عن حقيقة التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل -
الزمخشري : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر .
دار الفكر - بيروت - القاهرة .
- ٥٥ - لسان العرب - ابن منظور المصري .
دار المعارف بالقاهرة (د.ت) .
- ٥٦ - مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة -
د. محمد حميد الله .
ط ٣ - دار الارشاد - بيروت .

- ٥٧ - مختار الصحاح - محمد بن أبي بكر الرازى .
المطبعة الاميرية - القاهرة ١٩٢٢ .
- ٥٨ - مختصر تفسير ابن كثير - للإمام ابن كثير : عماد الدين أبي الفداء
اسـماعـيلـ بنـ كـثـيرـ الدـمشـقـيـ - اختصار وتحقيق محمد عـلـىـ
الصـابـونـىـ . ط ٧ - بيروت ١٩٨٢ .
- ٥٩ - الدـخـلـ إـلـىـ الـقـيمـ الـاسـلـامـيـةـ - دـ.ـ جـاـبـرـ قـمـيـحةـ .
دار الكتاب المصرى - اللبناني - القاهرة ١٩٨٤ .
- ٦٠ - الشـرـوـعـيـةـ الـاسـلـامـيـةـ العـلـىـ - دـ.ـ عـلـىـ جـرـيـشـةـ .
ط ١ - مكتبة وهبة - القاهرة ١٩٧٦ .
- ٦١ - المعاهدات والمهادنات في تاريخ العرب - محمد عبد الفنى حسن .
الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة ١٩٦٦ .
- ٦٢ - موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية : الكتاب الأول
السيرة النبوية العطرة - دـ.ـ اـحـمـدـ شـلـبـىـ .
ط ١ - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨١ .
- ٦٣ - نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
(دراسة في وثائق العهد النبوى) دـ.ـ عـوـنـ الشـرـيفـ قـاسـمـ .
ط ٢ - دار الكتاب المصرى اللبناني - القاهرة ١٩٨١ .
- ٦٤ - النظام الدستوري العربي - دـ.ـ ثـروـتـ بدـوـىـ .
دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٤ .
- ٦٥ - نظرية الحق - عبد الحى حجازى .
ط ٢ - دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٥١ - ١٩٥٢ .

- ٦٦ - نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي - د. حسين نصار .
مكتبة لانهضة مصرية - القاهرة ١٩٥٤ .
- ٦٧ - نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية - الشيخ
عبد الحى القنائى .
بيروت (د.ت) .
- ٦٨ - النظريات السياسية الإسلامية - د. محمد ضياء الدين الرئيس .
ط ٧ - مكتبة دار التراث - القاهرة ١٩٧٩ .
- ٦٩ - نهاية الازب في فنون الأدب - النويرى شهاب الدين احمد بن
عبد الوهاب .
دار الكتب المصرية ١٩٥٤ .

كتب للمؤلف

١ - **منهج العقاد في الترجمة الأدبية**

دار النهضة المصرية القاهرة

٢ - **المدخل إلى القيم الإسلامية**

دار الكتاب المصري - اللبناني - القاهرة

٣ - **أدب الخلفاء الراشدين**

دار الكتاب المصري - اللبناني - القاهرة

٤ - **التقليدية والدرامية في مقامات الحريري**

توزيع دار المعارف - القاهرة

٥ - **في صحبة المصطفى**

دار الكتاب المصري - اللبناني - القاهرة

٦ - **الشاعر الفلسطيني الشهيد : عبد الرحيم محمود**

أو : **ملحمة الكلمة والدم**

دار الفكر العربي بالقاهرة

يصدر قريباً للمؤلف

أدب الرسائل في صدر الإسلام

الجزء الثاني : عهد الخلافة الراشدة

محترمات الكتاب

اهداء

تقديم

(١٤ - ٥)

أدب الخلفاء الراشدين والصلة النفسية : الوان أربعة من النصوص .
الحاجة الى دراسة مستقلة لكل لون . خاطر عن رسائل الخلفاء الراشدين .
تحول الفكرة الى أدب الرسائل في صدر الاسلام . أسباب التحول .
الرسالة . الكتاب . العهد . الصحقيقة . القاسم المشترك بينها . ملامع
مارقة .

الخطبة والرسالة . أيهما أدل على شخصية المنشيء ؟ . عصر صدر
الاسلام ومساحته الزمنية . الحد الزمني لهذه الدراسة . عهد النبوة
الهادئة . عهد الخلافة الراشدة . محوران أساسيان لهذه الدراسة . محور
موضوعى . محور فنى . الدراسة في جزئين أول وثان .

الفصل الأول

الكتابة في عهد النبي ﷺ
(٣١ - ١٧)

امة امية : مفهوم الامية . مذهب من يرى شبيوع الكتابة في المجتمع
الجاهلى . أدلة هذا الرأى . نقدنا لهذا المذهب . اعتماد العرب على
البديهة والارتجال .

- ١٧٧ -

(م ١٢ - أدب الرسائل)

النبي الأمي : أمية النبي وأمية العرب . كتاب الرسول : الكتاب المباشرون . كتاب الدولة .

هل كتب الرسول في حياته ؟ . ما حدث في الحديبية هو سبب الخلاف . آراء ثلاثة في هذه المسألة . نقدنا لهذه الآراء . اضطراب الروايات في مسألة المحو والاثبات . النبي لم يكتب شيئاً يوم الحديبية . بصمات الشيعة في رواية المحو والاثبات . بين الحديبية سنة ٦ هـ وعهد التصالح بين على ومعاوية سنة ٣٧ هـ .

وكتابة على جبل سلع : أسماء محمد وأبي بكر وعلى مكتوبة على الجبل حفرا . د. حميد الله لا يستبعد صحة نسبة الكتابة إليهم . نقض هذا الرأي .

الفصل الثاني

البواعث والدوافع

(٣٣ - ٥٢)

في مكة : **سنوات الاعداد** . ثلاثة عشر عاماً من الدعوة إلى الله . الدعوة من السرية إلى الجهرية . هجرتان إلى الحبشة . ميل الدكتور هيكل إلى أن وراء المهرتين هدفاً سياسياً . ما في هذا الرأي من اسراف . رواية ابن اسحق تنقض « تسييس » هجرتي الحبشة . آثار غير مباشرة لمهاجرين المهرتين .

الهجرة إلى المدينة أو الطريق إلى الدولة : ملامح التشريع المكي . لقاءات ثلاثة مع الأنصار قبل الهجرة . أهم ما يميز العهد المكي .

في المدينة : **دولة الإسلام** : الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة والفرق بينهما . من الصعب إلى الأصعب . ومن الأرض الراهنقة إلى الأرض القابلة .

دولة المدينة وطبيعتها . بعض الحكومات في الجزيرة العربية في الجاهلية . لا دولة عربية مركبة . دولة المدينة في ضوء القواعد القانونية فديما وحديثا . أركان « الدولة المصرية » توفرت لدولة المدينة .

البواعث والدافع : نشوء مجموعة من العلاقات الجديدة . المراحل التي مررت بها العلاقة بين مكة والمدينة . علاقة بين مجتمعين . علاقة بين مجتمع ودولة « غير مشروعة » . علاقة بين مجتمع ودولة شرعية . علاقة الدولة باليهود . علاقة الدولة بالنافقين . ركيزان في تكثيف هذه العلاقات : ركيزة الحكم والموعظة الحسنة . ركيزة استخدام القوة . نشوء الدولة وظهور هذه العلاقات وراء الرسائل والكتب . الدافع السياسي . دافع الحرب النفسية . كتب التجسس . دافع السلام . دافع نشر الدعوة . دواعت نفسية أخرى .

الفصل الثالث

الموضوعات والمضامين

(٥٣ - ١٤٨)

١ - المعاهدات وكتب الصلح : بين المسلمين واليهود . طبيعة العلاقات السابقة في مجتمع المدينة . قوام المجتمع الجديد بعد الهجرة . سلام لا مواجهة . تعليل ذلك . **المبادئ السياسية والقيم الاجتماعية في معاهدة المودعة** . التقاء هذه المبادئ في الحرص على اقرار السلام (التكامل والاستقرار) .

سمات موضوعية في العهد : الشمولية . عمومية النص . مراعاة الواقع الاجتماعي والتاريخي . دقة الصياغة . هل يعتبر الكتاب من نوع « الدستور المنحة » ؟ الرد على هذه الشبهة .

بين النبي وكفار مكة (صلح الحديبية) . بين كتابين . نص

الصلح . المبادئ التي قررها . موقف المسلمين من الصلح . عبقرية الرسول
وبعد نظره . كتب الأمان : مفهومها وأنواعها .

٢ - كتب الدعوة إلى الإسلام . أذا العام السادس للهجرة ؟ .
الرسول المبعوثون إلى الملوك والأمراء . مضامين هذه الكتب . وجسه
اتفاق . وجسه اختلاف . تأثير هذه الكتب .

٣ - الرسائل والكتب التشريعية : مفهومها و مجالاتها . نوعان من
هذه الكتب . كتاب النبي في الصدقات أو في الكتب التشريعية المتخصصة .

٤ - كتب الأقطاع والفنائم : مفهومها . البواعث والدوافع إلى كتابة
هذه الكتب : الكرم . تأليف القلوب . الفقر والعوز . التعمير . الفيء
والفنائم . تشكيك حميد الله في هذا النوع من الكتب . معياران احتكم
إليهما في التشكيك . رأينا فيما ذهب إليه .

حالات أخرى من أقطاع النبي - صلى الله عليه وسلم - .
كتب الفنائم . مفهومها نموذج منها . بينها وبين كتب الأقطاع .

٥ - الكتب الإدارية والتنظيمية : مفهومها و مجالاتها . كتب التولية
والتنصيب . كتب التكليفات بمهام محددة . كتب تنظيمية تنص على
عقوبات المخالف . بين هذا النوع من الكتب والكتب التشريعية .

٦ - كتب التجسس والاستطلاع : مفهوم هذه الكتب ومدى الاحتياج
إليها . دور العباس بن عبد المطلب في مكة . كتاب حاطب بن أبي بلتعة
إلى الشركين في مكة . موقف النبي وال المسلمين مما فعل حاطب . موقف
الشريعة والقانون من هذا الفعل . ندرة هذا النوع من الكتب .

٧ - الكتب الشخصية أو الخاصة . مفهومها . هل يمكن أن تكون
بين شخصيات عامة ؟ . العبرة في رأينا بال موضوع لا الأطراف . رسالة
النبي إلى معاذ يعزيه في ابنه . تشكيك بعضهم في صحة نسبة هذه الرسالة
إلى النبي . ردنا على هذا التشكيك .

٨ - **الكتب الجوابية** : مفهوم هذه الكتب . نماذج منها . كتب الردود على الردود .

٩ - **كتب الآخرين** : كثرة كتب النبي وقلة كتب الآخرين . تعليل ذلك . كتب الآخرين نوعان : كتب جوابية . كتب انسانية . كتاب خالد بن الوليد . كتاب مسلمة الكذاب . عهد العلاء بن الحضرمي لأهل البحرين . ردود بعض الامراء والحكام على الرسول صلى الله عليه وسلم .

الفصل الرابع

الملامح والسمات الفنية

(١٠٩ - ١٥١)

الفصاحة النبوية : مصادرها وطبيعتها : المصدر القرآني . المصدر البيئي . المصدر الذاتي . قمة البلاغة البشرية . الجاحظ وبيان الرسول .

منهج الرسالة النبوية : ١ - الافتتاح بالبسملة ٢ - ذكر طرف الكتاب ٣ - التحية بالسلام ٤ - أما بعد ٥ - ختام الرسالة .

الضمنون بين الرسالة والخطبة . فروق بين النوعين . تعليل هذه الفروق .

بين الاطناب والإيجاز . خطأ من يفضل بينهما . لكل منهما مقامه . غلبة الإيجاز على رسائل النبي - عليه السلام - تعليل ذلك .

التقابل والتضاد . مفهومه وأثره . أمثلة له في رسائل النبي - عليه السلام .

السهولة والوضوح . الآثار السيئة للتعقيد . أسلوب النبي أسلوب عصري . تعليل ما في بعض رسائله من غريب حوشى . مراعاته مقتضى الحال . جانبان لهذه المراعة .

التدفق والتسلل : مفهوم هذه المسألة . . . اذا كره السجع ؟ .
اختلاف النقاد في ذلك . رأينا في هذه المسالة . سجع النبي وتقيمه .
كتاب موضوع على النبي . أدلتنا على الوضع .

الشواهد القرآنية والأسلوب النبوى . ركائز لانبى فى الاستشهاد بالقرآن : طبيعة المرسل اليه وطبيعة السياق والموضوع . أمثلة متنوعة طرق استشهاده بالقرآن . الاستشهاد بالآية أو بعضها بالنص . الاستشهاد بالآية مع تغير طفيف . كلمات قرآنية في تضاعيف الرسائل .

العنصر التصويري في الرسائل . نماذج من الصور .
كتب ذات أسلوب علمي بحث . العنصر الفكري هو أهم العناصر .
بين التقرير والتصوير : ارتباط طبيعة الأسلوب بطبيعة الموضوع .

بين الشك واليقين : ضرورة فحص الوسائل داخلياً للحكم بصحتها أو وضعها . مثال لرسالة موضوعة . عود إلى معياري حميد الله . كتب موضوعة بلا شك . أدلتنا على الوضع . شك المقدسي في كتب النبي إلى الملوك . ردنا على ما ذهب إليه . أغلب كتب النبي عليه السلام صحيح .

مختارات من الكتب والرسائل (١٥٣ - ١٦٥)

- ١ - كتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين المسلمين والأنصار واليهود بالمدحنة .
 - ٢ - كتابه للمنذر بن ساوي ملك البحرين .
 - ٣ - رد المنذر على الكتاب .
 - ٤ - رده - عليه السلام - على رد المنذر .
 - ٥ - كتاب خالد الى النبي - صلى الله عليه وسلم .

- ٦ — كتابه — صلى الله عليه وسلم الى معاذ بن جبل يعزيه في ابن فقدمه .
- ٧ — كتاب أبي سفيان الى النبي في الخندق .
- ٨ — رد النبي — عليه السلام — على أبي سفيان .
- ٩ — كتاب مسليمة الكذاب الى النبي — عليه السلام .
- ١٠ — رده — صلى الله عليه وسلم — على مسليمة .

المراجع (١٦٧ - ١٧٤)

محتويات الكتاب (١٧٧ - ١٨٣)

رقم الايداع : ٨٦/٤٧٣٣

الترقيم الدولي : X - ١٠ - ٠٢٨٥ - ٩٧٧

شركة دار الاشاعع للطباعة
١٤ شارع عبد الحميد - جنينة قابيشه
السيدة زينب ت : ٣٦٣٠٤٦٩

هذا الكتاب

في عهد النبوة الهاشمية ... نبوة محمد بن عبد الله نبات «دولة جديدة» ترتكز على قواعد الحق والحب والهوى والانسانية، واتسعت دائرة الدولة تحمل النور الى مشارق الارض والمغارب . وكانت «الرسائل» وسيلة من وسائل الدعوة الى الدين الجديد .

وهذا الكتاب دراسة موضوعية فنية «لأدب الرسائل في عهد النبي عليه السلام» ، وهي دراسة تدور حول محورين أساسين : الأول : اتجاهات الرسائل واطرافها ومضمونها الذاتية والاجتماعية والسياسية والانسانية . او ما يمكن ان نسميه المحور الموضوعي .

والثاني : الملامح والسمات الادبية لهذه الرسائل ... رسائل النبي عليه السلام وملصريه ... في اطوارها المختلفة ، وهو ما يمكن ان نسميه المحور الفنى .

لقد كتب في هذا العهد الوازن متعددة من الرسائل والكتب منها المعاهدات وكتب الصفع ورسائل الدعوة الى الاسلام والرسائل التشريعية والرسائل الادارية والتنظيمية والرسائل الاخوانية والرسائل الجوابية وغيرها . وكل اولئك كان مجال دراسة اهل ان تكون منصفة ودقيقة وواعية .

هذا عن الجزء الاول الذي يحظى بنظرات القارئ الان .
اما الجزء الثاني - وهو عن أدب الرسائل في عهد الخلافة الراشدة فسيصدر خلال الشهور الأولى من عام ١٤٠٧ هـ ان شاء الله .
والحمد لله رب العالمين ..